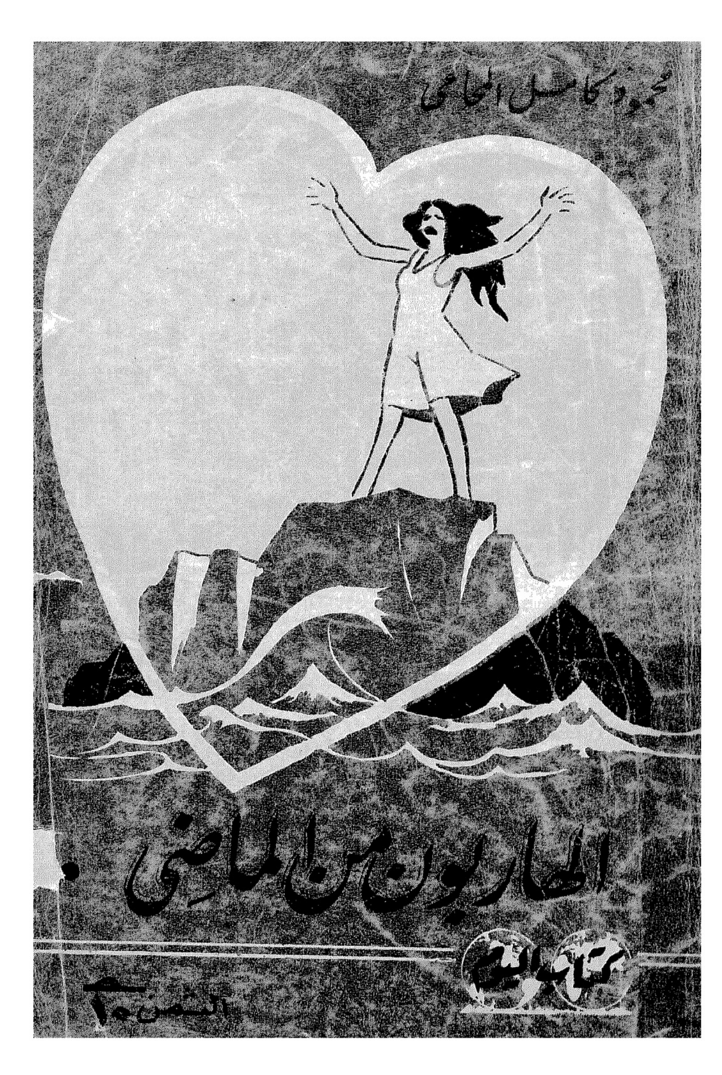

محمود كامل المحامي
الهاربون من الماضي
كتاب اليوم
الثمن ١٠

محمود كامل المحامي

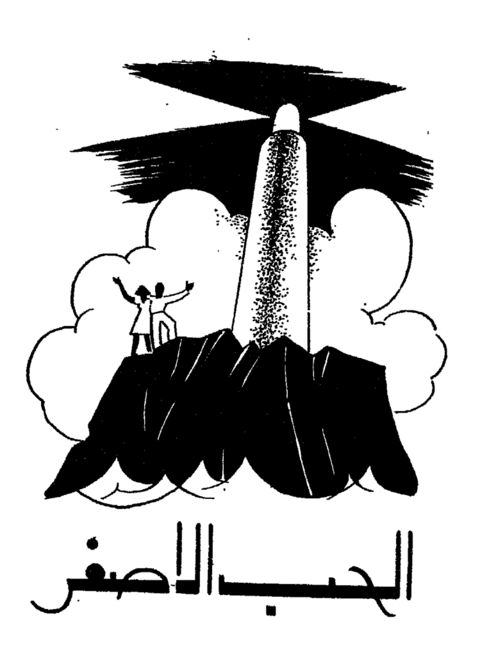
الهاربون من الماضي

المقـــــــدمة

ان نســــــاء ورجال هذه القصص عاشـوا ماضيهم ـ في الحياة الواقعة ـ يحملون أسماء أخرى غير الاسماء التي أطلقت عليهم هنـا • في أماكن أخرى غير التي أشير اليها في هذا الكتاب • وقد عمل كل منهم بوسيلته الخاصة على الهرب من ذلك الماضي • •

واذا كانمن حق القراء آن يطلعوا ـللعبرةـ على هذه الالوان من الحياة المصرية منذ بضعة أعوام فان من حق هؤلاء الهاربين من الماضي ـ الذي أوحى بمادة هذه القصص جميعها ـ أن يقدم هـذا المـــــاضي في الاطار الذي يحفظ له حرمته

محمود كامل


الحب الاصفر

الحب الاصفر

« عند ما نوديت قضية مديحةهانم عصمت، كريمة المرحوم على بك عصمت ، امام محكمة مصر الحسبية فى ٢٥ ديسمبر من العام الاسبق ، لاحظت مع الموجودين فى الجلسة ان طالب الحجر ، وهو زوجها الدكتور احمد رشدى ، كان يبكى والقاضى يتلو قراره بتوقيع الحجر على المدعى عليها لضعف قواها العقلية

وتلفت حولى فوجدت علامات الدهشة والوجوم تسرى على وجوه الجميع ، لاننا لم نعتد ان نرى طالبى الحجر يبكون عندمايكسبون قضاياهم ، ولكن هذه الرسالة التى وصلت الى فى الاسبوع الماضى ، تكشف عن تلك المأساة العجيبة »

سيدى ..

اذا عرفت ان التى تكتب اليك الآن هذه الرسالة الطويلة قد غادرت منذ بضعة اسابيع مستشفى من مستشفيات الامراض العقلية ، فى احدى ضواحى القاهرة ، بعد ان ظلت فيه ثلاثة اعوام ، وقد شاء مديره الايطالى الطبيب ان يترفق بساكنيه فأطلق عليه اسم « مصحة الأمراض العصبية »

اذا عرفت هذا فهل تشعر نفسك برغبة فىاستكمال قراءة ما كتبته حتى النهاية ! ؟

لست أدرى ، ولكنى مع ذلك أكتب اليك لانني لا استطيع ان

اقاوم الرغبة فى ان اترك هذه المأساة الهائلة التى عشتها اخيرا تمر دون ان يطلع عليها قراؤك ..

اننى واثقة من انواحدة غيرى لم تذق العذاب الذى ذقته ، من اجل الرجل الذى احببته ، هذا الرجل هو زوجى الدكتور احمد رشــدى الذى ذاع الآن صيته كواحد من جراحى العظام، واخذت الصحف المصرية تذكر من حين الى آخر انباء نجاحه ومقالاته العلمية التى ترحب المجلات الطبية الانجليزية بنشرها وتثنى على صاحبها أجمل الثناء .

ومع ذلك فقد كان زواجى منه زواج حب عنيف مجتاح .. كان احمد لا يزال طالبــا فى الســنة النهائيــة بكلية الطب ، عندما كنت اقطن مع والدتى فى احد منازل المنيرة . وشاءت المصادفة ان يلتقى بى ذات ليلة فى منزل ابنة خاله التى كانت تزاملنى اذ ذاك فى الدراسة بمدرسة «السـاكركور»

ولم ألبث ان لاحظت ان احمد قد بدأ يفضل انتظار الترام بعد خروجه من الكلية ، عند المحطة المواجهة لمنزلى بشارع القصر العينى

وكنت فى بادىء الامر الاحظ بقاءه على الافريز الذى يتوسط الطريق الواســع مدة طويلة ، وهو يتعمد النظر الى كل ترام قادم والتظاهر بعــدم امكانه الصعود اليــه بسبب ازدحامه الشديد بالركاب ، لكى يتسنى له اطالة البقــاء مدة أخرى . .
كنت الاحظ ذلك من خلف « شيش» نافذة غرفتى المغلقة ، دون أن اشعره بأننى الاحظ تظاهره السـاذج بأن كل قطارات الترام المارة أمام منزلى محتشدة بالركاب . واخيرا تجرأت ، فكنت أفتح النافذة ، ولا اكاد اطل منها وأراه حتى يتصــاعد الدم الى وجهى فأغلقها وأنا بادية الارتباك ..

ولا اطيل عليك يا سيدى سرد تلك الفــترة من غرامنــا

الطفل . فقد أتم احمد دراسة الطب ونال اجازته الجامعية وتقدم الى والدتى بطلب يدى فوافقت . وتفاهمنا على اطالة مدة الخطبة حتى يستقر عمله فى العيادة التى اتخذها لنفسه باحدى العمارات الجديدة فى شارع شبرا .

واقبل احمد ذات يوم ففاجأ والدتى بأنه استأجر الشقة المجاورة لعيادته ورجاها فى أن تتم اجراءات زواجنا، واخبرنى بأننا سنعود لنقطن منزلنا الجديد ، بعد ان نقضى شهرالعسل بعيدا عن القاهرة .

وسألته :

ــ اين يا احمد ؟

فامسك بيدى ودقق النظر الى عينى فى وله عميق ، وزفر زفرة حارة طويلة ثم قال :

ــ لن أقول لك يا « ميمى »

ــ كيف ؟

ــ هكذا . غدا تعرفين . أعدى حقيبتك : « بيجامة » واحدة و «شورت» و «فرشة » لغسل الاسنان

وخيل الى انه يسخر فقلت :

ــ وعلبة « بودرة » وزجاجة عطر ..

ولكننى شعرت اذ ذاك بأصابعه تضغط على يدى فى حركة عصبية وهو يقول :

ــ أبدا .. لن تحتاجى الى شىء من ادوات التجمل

فقطبت جبينى وقلت وانا لا ازال اعتقد انه يسخر :

ــ لا يمكن . كيف اخرج بدون ان اضع فى وجهى شيئا من تلك الادوات !

ــ لن يراك أحد . سنعيش حياة فطرية . . انت وانا والبحر والرمل ..

ـ حتى بلاج الاسكندرية يستدعى ثوبا من أثواب السهرة ليلا . كما ان جميع المصطافات فيهـا لا يغيب عنهن التجمل عند الخروج

ـ لن نسافر الى الاسكندرية ولا بورسعيد ولا راس البر .

ـ مرسى مطروح ؟

ـ ولا اى مكان آهل بالناس أو يحتمل أن يؤمه الناس

***

وعبثا حاولت يومئذ ان أعرف اسم المكان الذى راى احمد ان نقضى فيه شهر العسل

واعددت حقيبتى فى الصباح المبكر ، واقبل احمد بسيارته فصحبنى بعد أن ودعنا والدتى ثم انطلقت بنا السيارة فى طريق السويس

وعلمت ، بعد أن اختفى شبح القاهرة من خلفنا ، كل شىء . . علمت اين قرر احمد ان نعيش أيام وليالى زواجنا الاولى !

وغمرنى فرح هائل . لأنى تبينت أنه يشاركنى نفس الميل والشعور والخيال !

هل تدرى يا سيدى اين قضينا شهر العسل ؟

فى مكان لا أظن ان زوجين مصريين قد فكرا فيه ، أو يمكن أن يفكرا فيه

أوه ! اننى ابكى وانا اكتب اليك ، لان ذكرى السعادة التى رأيتها فى ذلك الشهر ظلت تطاردنى بعد ان عدت الى هذه الدنيا التى تعيشون فيها ، فكانت السبب الذى حطم حياتى ونسف أعصابى ؟ لقد قضينا شهر العسل فى جزيرة «شدوان» وهى جزيرة صغيرة من جزائر البحر الاحمر ، سافرنا اليها على ظهر طوافة من طوافات مصلحة الموانىء والمنائر التى

تجوب سواحل البحر الاحمر فى مدد معينة من كل سنة لكى تنقل الطعام والماء والبريد الى حرس « المنائر المصرية .. » !

انى الح علامات الدهشة ترتسم على محيــــاك ولــكن ثق ياسيدى انك لوكنت قد عشت تلك الحيــاة التى عشتها أنا واحمد لأيقنت كما ايقنت انا ان احمد برغم دراسة الطب ، قد ولد شاعرا مرهف الحس ، وهب روحــه للحب والعاطفة والخيال ... انني لم اكن احلم بأكثر من ان اعيش الى جانبه تلك الحياة الطليقة النقية الرحبة التى تغذى الغرام الشاب بأطهر وحى !

ولعلك تعلم ان تلك الطوافات الصغيرة تغادر السويس فى رحلة لا تقل عن شهر كامل ، وهى تمر على المنائر المصرية المتعددة، المقامة على طول ساحل البحر الاحمر ، والـكثير منها فى جزر تبعد عن الساحل ، وهى جــزر صخرية وعرة لا يقطنها احد الا ذلك الحارس المسكين ومساعده، وهما يتناوبان العمل اثناء الليل لهداية السفن المارة فى ذلك البحر الموحش ، وذلك الحارس يعيش تسعة اشهر من العام ينتظر الطعام والماء والبريد مرة فى كل شهر ، فاذا مرت الطوافة وتركته ودعها وهو دامع العين ، لانه يعلم انها لن تعود اليه الا فى مثل ذلك اليوم من الشهر التالى . من اجل هؤلاء الحراس يا سيدى يعلن مدير مصلحة الموانىء والمنائر قبيل عيد الميلاد من كل عام ، رجاءه ان يتفضل الناس الذين يعيشون فى هذا العالم المرح الصاخب ، باهداء الكتب القديمة والمجلات والاسطوانات ليشعروا بأن صلتهم بالعالم لم تنقطع ؟

ومع أولئك الحراس .. أولئــك الآدميين الذين يعيشــون بعيدا عن هذه الدنيا ، قضـــينا شهر العسل كأسعد عاشقين .

سعادة قصر خيال أنبغ القصصيين عن تصورها .
ويكفى ان أقول لك ان قبطان الطوافة قد أفردلنا غرفة خاصة فى سطح الباخرة بعيدا عن حركة العمل، بعد ان علم ان احمد قد حصل على اذن خاص من مدير المصلحة بالقيام بأبحاث علمية عن «البيولوجى» فى تلك النقطة من البحر الاحمر ليعدها للنشر فى احدى المجلات الانجليزية العلمية .

ومرت بنا « الطوافة » فى جولتها التقليدية على المنائر واحدة بعد الاخرى ، والقت مراسيها ذات يوم امام منارة «شدوان» واقبل القبطان ليخبر أحمد بأنه يستطيع ان يقضى عشرة أيام فى الجزيرة التى بها المنارة ، ريثماتتم الطوافة رحلتها الى اقصى السواحل المصرية ثم تعود، وعرض على احمد الفكرة فوافقت فرحة وسرعان ماتبينت انه كان قد أعد كل شىء، كأنه كان موقنا من اننى سأرحب بالحياة فى تلك الجزيرة الصخرية عشرة ايام بعيدا ، حتى عن أهل «الطوافة» فقد رأيته يتقدم قبل هبوطنا الى مخزن «الطوافة» ويخرج حاملا اجزاء « خيمة » من الخيام التى أعدت خصيصا لرحالة الصحارى .

وحاول بعض البحارة ان يساعده فى حملها فأبى ، واشار الى ، فحملت بعض اجزائها المفككة وحمل هو البعض الآخر وودعنا أهل « الطوافة » ، ثم هبطنا جزيرة شدوان وهناك على تلك الارض الصخرية ، بعيدا عن الساحل الرملى وسط ذلك البحر الموحش ، قضيت انا وأحمد عشرة أيام كاملة . . كنا نأوى الى الكوخ لننام عند مايبدا حارس المنارة الانجليزى عمله الليلى . فاذا بدات خيوط الفجر الاولى تضىء الافق الممتد الى مالانهاية استيقظنا من النوم واستقبلنا يومنا بقبلة طويلة ، وقد تجمعت طيور البحر البيضاء أسرابا أسرابا واخذت ترفرف بأجنحتها

الطويلة فوق الكوخ المنعزل كانها تحيى الضيفين العاشقين اللذين اكتشفا تلك البقعة النائية !

وسرعان ما اقفز أنا فأخلع « البيجامة » التي شاء أحمد إلا احضر غيرها معي ، وارتدي ثوب البحر ثم أعدو الى الماء الذي لم يكن يبعد عن الكوخ بأكثر من عشرة امتار ، فاستحم ريثما يعد أحمد القارب الصغير - الذي اعتاد حارس المنارة ان يستخدمه في وحدته لصيد السمك من البحر القريب - ويضع فيه السنارة و(الطعم) ، وهكذا نقضي تسع ساعات أو عشرا داخل ذلك القارب ونحن بثوب البحر تحت اشعة الشمس المحرقة ، التي عرف بها ذلك الاقليم من بين اقاليم العالم . ثم نعود الى الجزيرة وقد حملنا صيد اليوم فنوقد تحته ونعده للأكل وندعو حارس المنارة ليقاسمنا الطعام، فاذا انتهينا عمد الحارس الانجليزي العجوز الى وضع اسطوانة على (فونوغراف) مهشم كان يحتفظ به وارتفعت موسيقى ساحرة تعطر جو تلك الجزيرة الصغيرة ، واخذنا نتجاذب أطراف حديث قصير .

ثم تغرب الشمس ويهبط الظلام فيصافحنا الحارس مودعا ويصعد بخطاه الرهيبة الى منارته ونأوي نحن الى كوخنا لنقضي الليل . . .

عشرة أيام اختلسناها من الدهر اختلاسا ، لم نحاول مرة، ونحن نتبادل القبل ، ان نتلفت حولنا خشية ان يرانا أحد ، لاننا كنا واثقين من ان العالم قد خلا لنا وحدنا، عشرة أيام لم يعبس أحدنا فيها مرة واحدة ، بل لم يشعر أحد بشيء من شرور الدنيا التي نعيش فيها الآن ، كل شيء كان يبتسم لنا . الحارس الانجليزي العجوز كان يبتسم كلما رآنا ، لاننا كنا بالنسبة له كحلم من احلام اليقظة الجميلة . . والطيور البيضاء كانت تحوم على مقربة

منا ولا تنفر ، كأنها ايقنت من ان هذين الآدميين اللذين اختارا ذلك المكان النائى لايمكن الا ان يكونا من الدعة بحيث لايخشى بأسهما اذا دنت طيور البحر منهما . حتى البحر الموحش كان يبتسم لنا .. كانت امواجه ترتفع من بعيد أثناء الليل فترغى وتزبد . حتى اذا وصلت الى الشاطىء الذى قام كوخنا على القرب منه تكسرت وانحسرت ، بعد ان تكون قد اجتاحت العشب واقتلعت فتات الصخر المدبب ومهدت الطريق تحت اقدامنا لحمام الصباح .. والسمك .. لعلك تدهش ياسيدى اذا قلت لك ان سمك « التونة » كان يتجمع حول قاربنا بكثرة هائلة ، ويفتح فاه ليتلقى « الطعم » كأنه يستسلم للموت فداء الضيفين العاشقين ويشفق على اناملنا من ان يدميها الجهد الشاق فى مطاردته وصيده

ثم اعادتنا الطوافة الى العالم بعد شهر العسل وبدأنا حياتنا الزوجية فى المنزل الذى كان احمد قد أعده فى شارع شبرا . فخصص ثلاث غرف للعيادة واربع غرف لسكننا .

ولاحظت بعد بضعة أيام ان زوجى قد انهمك انهماكا شديدا فى عمله ، وخيل الى اننى مغالية فى تقدير ذلك . ولكننى تبينت فعلا انه كان لايكاد يعطينى من وقته الا المدة اللازمة لتناول الغداء . ثم لم يلبث ان فاجأنى بأنه تعاقد مع احدى الجمعيات الخيرية على ان يتولى الاشراف على مستشفاها فى المرج ساعتين فى اليوم ، وانه اختار ان يكون ذلك فى منتصف النهار لكيلا يتعطل عمله فى عيادته الخاصة

ولم اعد أراه الى جانبى اثناء الغداء

واحسست ان زوجى قد اخذ يبتعد عنى شيئا فشيئا . اختطفه عمله اختطافا منى ، فكان يستيقظ فى الساعة السابعة صباحا ليتناول طعام الافطار مسرعا ، وهو مهتم باتمام ارتداء ثيابه ، ثم يسرع الى القصر العينى ليؤدى عمله هناك ويعود قبل الظهر فيدخل الى

عيادته مباشرة ويظل منهمكا فى مقابلة مرضاه والرد على المحادثات التليفونية وتحديد زياراته الطبية فى المساء حتى الساعة الثانية ، ثم يخرج دون أن أراه فى معظم الاحيان لكى يؤدى عمله فى مستشفى المرج ويعود فى المساء الى العيادة ليبقى حتى الساعة الثامنة ، فاذا لم يكن مدعوا لحضور أحد اجتماعات الجمعية الطبية للاستماع الى احدى محاضراتها أو الاشراف على اصدار مجلتها التى كان معهودا اليه بقسم هام منها ، دخل الى المنزل ليخلع ثيابه ويتناول كتابا من تلك الكتب الطبية الضخمة فيتصفحه حتى يغلبه النعاس فينام .

***

واحتملت تلك الحياة شهرا وشهرين وأربعة شهور ، ثم لم تقو أعصابى على الاحتمال ، وذات مساء رأيته يعود الى المنزل فى الساعة العاشرة ليضىء المصباح الازرق الصغير الموضوع على مكتبه ، وينكب على الكتابة دون أن يسألنى عما اذا كنت قد انتظرته لتناول العشاء معه أولم انتظر ، فصارحته قائلة :

ـ وأنا يا أحمد الا تعنى بى على الاقل عنايتك بمرضاك وكتبك ومحاضراتك ؟

ورفع أحمد رأسه من تحت المصباح الازرق فى بطء وابتسم لى ، ثم اشار الى خطاب كان قد ورد اليه من مجلة طبية انجليزية ترجوه موافاتها ببحث عن تجاربه فى جراحة عظام الاطفال ، ثم هز رأسه وعاد الى الكتابة . .

وتذكرت اذ ذاك ، وأنا اشاهده خلف المصباح وسط ظلام الغرفة ليلة أحس بنا حارس المنارة ونحن نتجول بأقدامنا العارية على ارض الجزيرة ، فأطل من أعلى بناء المنارة وحيانا بيده ثم هز راسه

وعاد الى تحريك الكرة الزجاجيةالتى تحيط بمصباح المنارة .
وترقرقت الدموع فى عينى فغادرت الغرفة واسرعت الى غرفتى فأغلقت بابهـا خلفيواستسلمت للبكاء !
ولكن معاملة أحمد تغيرت عندماعلم منى اننى سأصبح اما عما قريب ، فكانيتعمد تناول الغداءمعى فى المنزل . وكان يتحدث بالتليفون مرة ومرتين فى اليوممن الخارج ليطمئن علىصحتى ولاحظت أنه اعتذر بضع مراتمن عدمحضورواجتماعات الجمعية الطبية ليظل الى جانبى .
فلما رزقت بابنتنا نعيمةنشبخلاف حاد بينى وبينه . لأنهألح فى أن أقوم أنا بارضاعها باعتبارأن ذلك أصح للطفلة ، وابيت أنا وبررت ابائى بأن فترة الوضعأرهقت اعصابى واضعفتصحتى وفجأة رايته يصرخ فى وجهى :
ـ هذا الكلام لاتقوله ام تحبابنتها ، اننى طبيب واستطيع ان اقدر ما اذا كانت صحتك تسمحبارضاع الطفلة أم لاتسمح . وهأنذا اقول لك ان الواجبيقضي عليك بألا تتركيها لاهمال المرضعات .
واستجمعت قواى ثم أجبته :
ـ اعرف انك طبيب ، ولكنك لكى توفر أجرالمرضعة ، تريد أن تفهمنى أن قواعد الطبتقضيبألا يتولى ارضاع طفلتى سواى
وحملق أحمد بعينين ذاهلتينعند مارآنى اتجرأ على اتهامه بتلكالتهمة القاسية ، وأداز ظهرهثم غادر المنزل .
وقبل ان يعود فى الظهر كانتالمرضعة قد حضرت الى المنزل
ولكن ذلك الخلاف كان قدتركاثرا فى نفسينا . . اجل شعرت بعده كأن شيئا من كياننا قدانكسر أو تفتت أو انهار .
وانقضت بضعة شهور ، ثمطلبت الى أحمد ان يحضر لى مة

مربيـــة تتولى العناية بها منذطفولتها . .

فاستجـاب لرغبتى واحضر المربية ، ولكنه ذهب الى والدتى فى منزل المنـيرة وشكا اليها من‌اننى اكتفى بالدخـول الى غرفة الطفلة مرة أو مرتين فى اليـــوم‌لأصدر بعض التعليمـــات الى المربية ، ثم اقضى اليوم فى‌القراءة‌او اخرج للقيام بزيارة أو لشراء حاجاتى ، فلمـــا أقبلت والدتى‌ونقلت الى تلك الشكوى‌صارحتها بقولى :

ــ لاتصـــدقى أحمد يا اماه . لقد تغير تغيرا كبيرا . لم يعـــد احمـــــد الذى عرفته فى بدءزواجنـــا . اننى اعرف انه يريد التخلص من‌المربية لكى‌اضطر الى‌البقاء الى جانب الطفلة ليل نهار، فيتمكن‌هو من‌السهر وحده‌خارج‌المنزل كما يشاء .

وحـاولت والدتى أن تعترض‌قائلة :

ــ الا يجـوز ان يكون سهره‌خارج المنزل‌لداع‌من‌دواعى عمله؟ انه طبيب ناشىء يبنى مستقبله،فلم لاتشجعينه على هذا بدلا من تسميم حياته بهذه المشاغبات ؟

ــ آه ! هذا ليس كلامك انت ،انما كلامه‌هو . . لقد حفظت هذا الاسلوب عن ظهر قلب . لم أعداصدق هذا التحايل على خيانتى. لست اول زوجة لطبيب . فان‌خمســـا او ستا من زميـــلاتى السابقات فى « الساكركور » قدتزوجن من اطباء ومع ذلك فان واحدة منهن لم تشك ولم تتبرم‌بحياتها ، جميعهن يخرجن مع أزواجهن . . ليلة الى السينمـا‌واخرى لتنـــاول العشاء خارج المنزل . وثالثة لرد زيارة لبعض‌أفراد الاسرة . بينمـا احمد لم يصحبنـــى منـــذ الزواج ، حتى‌لتنــــاول قدح من الشــــاى فى مكان‌عام كحديقة «ميناهاوس»اننى‌واثقة من انه‌يريدان يصرفنى عن مباهج الحيـــاة التى تتمتع‌بها الزوجات الشابات ، بتركى

انهمك فى العناية بطفلتى لكى يخلوله الجو فى خـــارج البيت مع خليلاته .. انه لاحـديث له فى الايام الاخيرة الا عن الرغبة فى أن نرزق بطفل بعد نعيمة

***

وتمكنت هذه الفكرة من راسى بعدئذ تمكنا شـديدا . فكرة ان زوجى انمـا يتظاهر بانهماكه فى العمـل تظاهرا خادعا ، وانه فى الحقيقـة يقضى معظم وقته فى الخارج مع سيـدات أو فتيات يحاولن انتزاعه منى ، واصبحت ارتاب فى كل حـركاته ، فاذا دق جرس التليفون بعد عودته الى المنزل فى المســاء واجاب على الحديث بما يدعنى افهم ان حالة مرضية مفاجأة تستدعى خروجه توا ، لم اطمئن الى صدق ذلك بل أشيعه عنـد خروجه بابتسامة صفراء شاحبة تكاد تنطق بأننى اتهمـه بالاتفاق مع صاحب ذلك الحـديث الليلى على تلفيق تلك المؤامرة لاخفاء معالم سهرة ملوثة مع امرأة فى احدى حانات القاهرة؟!

ولقد زاد من تمكن تلك الفكرة فى راسى ان احمد كان قد قدمنى عقب عودتنـا من رحلة شهر العسـل فى البحر الاحمر ، الى بعض زملائه من الاطبـاء الذين اتموا دراستهم فى المانيا والنمسا وانجلترا والى زوجاتهم الاجنبيات ، فكنت انتهز فرصة اختلائى باحداهن فاسألها عما تعلمه من سلوك زوجى فى الخارج ، وعما اذا كان زوجها قد حدثها عرضا عن سهرات يقضيها احمد بعيدا عن منزله ، وعن اى سير معوج يشينه كزوج ! وكانت زوجـات أولئك الزملاء فى بادىء الامر يجبن بما يعلمن عن وفاء احمد لى وتوفره على عمله الطبى المتشعب توفرا اثار دهشة أساتذته واعجابهم .. ولكننى لم اطمئن الى صـدق اقوالهن فكنت اعود الى سؤالهن ورجـائهن فى أن يصـارحننى بالحقيقة ، فنقلن ذلك الى احمد ،

وعندئذ لاحظت انه امتنع عن ان يجمعنى بهن أو أن يدعوهن مع ازواجهن الى منزلنا كما كان يفعل قبلا ، فلم اجد تعليلا لذلك الا خشيته من ان تخطىء احداهن أمامى فأعرف شيئا مما يحرص على الا أعرفه .

وكانت الدنيا تزداد حلكة فى عينى أثناء ساعات الوحدة التى كنت اقضيها فى المنزل ، أجوب غرفه واقف احيانا امام مرآة لأطيل النظر الى وجهى ، كأننى أخشى ان اهرم قبل الأوان ، وساءلت نفسى ذات يوم وانا اجيل البصر فى الأثاث الذى كان يحيطنى « اذا كان أحمد حقا قد صادف نجاحا هائلا فى عمله الى الحد الذى صرفه عنى ، فلماذا لا يغير أثاث هذا المنزل . الذى لم يعد يتفق مع سمعته كطبيب معروف موفق . . »

ولم يلبث ان قوى لدى العزم على تغيير اثاث المنزل واقبلت الخادمة كعاتها فى صباح كل يوم لتنظيف ذلك الاثاث فصحت بها على مسمع من زوجى !

ـ اتركى هذا الأثاث المهشم . . . انه لا يستحق عناء تنظيفه

ورفعت الخادمة رأسها دهشة ثم سألتنى : ان التراب يكاد يخفى معالم المقاعد

فأجبت وانا لا ازال اتعمد ان اسمع احمد :

ـ التراب هو اليق شىء بها !

فرمقنى بنظرة هائلة ، ثم غادر المنزل دون ان يتكلم ، كأنه كان يسمع هذيان مجنونة !

واستثارنى هذا التحدى فأوصيت فى اليوم التالى على (طقم) لغرفة الاستقبال وآخر لغرفة المائدة ، وطلبت أن يرسل بائع الاثاث خطابا بالثمن الذى حدده الى عنوان زوجى بالقصر العينى . . واقبل احمد فى المساء ومعه الخطاب واخذ

يهزه أمام وجهى قائلا وقد امتقع لونه :

ـ ما هذا الجنون ؟ من تحسبيننى حتى يخيل اليك اننى قادر على تغيير أثاث بيتى بعد سنتين؟أيعقل ان اشقى طول النهار فى المستشفى والعيادة ، لكى تنفقى ما اكسبه فى شراء بضع قطع من الخشب والزجاج تبعثرينها فى انحاء البيت

فقلت وقد استرحت عند مارايته ثائرا :

ـ من أحسبك ؟ انك طبيب يملأ الدنيا صيتك ولا تكاد تجد وقتا كافيا لاجابة الطلبات المنهالة عليك .. الا ترى من العار أن تعيش حرم الدكتور احمد رشدى، الذى لا هم للصحف الا نشر اخبار عملياته واعلاناته عن كتبه، وسط هذا الاثاث المزرى ! ! ..

وكنت احس وانا القى هـذه الكلمات ، اننى كنت متجنية غاية التجنى وان أثاث منزلنا لم يكن قد بلى الى الحد الذى يستدعى هذا الموقف القاسى الاليم الذى وقفته من زوجى . ولـكنى مع ذلك لم استطع أن اقاوم الرغبة فى ان أرهقه بثمن هذين (الطقمين)

ما دام قد برد حبه لى ، فكيف أحرص على أن أدخر له ، ولماذا اشفق على ماله من الضياع ؟

ان تجار الاثاث أحق بمال زوجى من النساء اللاتى كنت أوقن بأنه يقضى معظم وقته بين سواعدهن ؟

وخضـع أحمد فدفع الثمن الضخم ..

وتعلم بعد تلك التجربة أن من العبث تحدى رغبتى والاحتجاج بعدم مقدرته على الدفع ، فكان يدفع (فواتير) حائكة الثياب الايطالية ، والبقال اليونانى ، وبائعة العطر الايطالية دون أن يناقشنى

ولكنه من جهة اخرى زاد انصرافا الى عمله ... فلم يتناول

بعد العشاء قط فى المنزل ، حتى فى ايام الجمع كان يتغيب معظم النهار بحجة انه اليوم الوحيد الذى يمكنه فيه البقاء فى دار الكتب لاستجماع بعض المراجع التى تلزمه

واشعل ذلك غيرتى واهتاجت أعصابى يوما بعد يوم ، وأصبحت لا أثق بحرف واحد مما يقوله زوجى لى . وتجاسرت على التنقيب فى جيوبه والتحايل على اخراج الرسائل التى ترد اليه من فتحة صندوق الرسائل والنظر اليها وشم رائحتها ثم اعادتها الى مكانها ، بل وصل بى الامر الى حد أننى كنت أقف منذ الصباح المبكر فى نافذة غرفتى المطلة على شارع شبرا ، أرقب القادمين الى العيادة . فاذا لمحت سيدة أو فتاة صاعدة الى زوجى ، استرقت الخطى ودخلت الى الغرفة المجاورة لغرفة « الكشف » والصقت أذنى بثقب مفتاح الباب الفاصل بين الغرفتين ثم اصخت السمع . .

ورآنى « التمورجى » مرتين . وخجلت خجلا شديدا من ذلك الموقف المذل ، ، ورجوته ألا يخبر أحمد ، وعولت على الا أعود اليه ولكننى لم أستطع . كانت الغيرة تمزق روحى فى قسوة ووحشية بشعة !

ودخل أحمد ذات يوم الى المنزل بعد ان راقبته من ثقب الباب ، ولاحظت ان سيدة شابة كانت أختها تزاملنى فى « الساكركور » قد بقيت عنده نحو ثلاثة ارباع الساعة ، وتقدمت اليه ثم ادنيت أنفى من وجهه وشممت رائحته بملء صدرى وقلت :

ــ الا تخجل من هذا ؟ . .

فنظر الى مذهولا ثم سألنى :

ــ مم أخجل ؟

ــ أهذه رائحة طبيب يغادر عيادته ! الا تشم ؟ ان الطبيب الذى يفوح منه اريج العطر ، بدلا من رائحة اليود أو « اليزول » لا يستحق أن يثق المرضى به ، والمريضة التى تحضر الى عيادة

الطبيب بهذا القــــدر من العطر والطريقة المبتذلة من « التواليت» لا تستحق عناء العناية بها

ــ وما ذنبى أنا يا « ميمى »أترين أن اضع على باب العيـادة اعلانا اذكر فيـــه أننى لا اقابل السيدات اللاتى يسرفن فى التعطر او التزين ؟ حرام عليك أن تسيئى الى نفسك والي بهذا الشكل .. انك تعرفين أننى أقابل سيدات كثيرات لا أستطيع أن اصدهن ، لاننى ارتزق منهن . انها مهنتى يا « ميمى » يجب أن تدركى هذا الوضـــع وأن تفهمى أن تردد السـيدات على أو ترددى على منازلهن لعلاجهن أو علاج اطفالهن، لا يعنى اننى أخـونك . على أن اصرارك على هذه المعاملة سيدفع بى الى الجنون

وارتعد جسمى اذ ذاك ولكنى تكلفت الهدوء وسألته :

ــ لندع ما فات الآن . . اننى الاحظ انك تغيرت . . . لم تعد تطيق أن تجلس الى جانبى ساعة كاملة ، وانا لا اريد أن اثقل عليك فانا ما زلت شابة ومن حقى أن أفكر فى مستقبلى ، كما أنك شاب ومن حقك أن تهنأ بالحيـاة مع امراة تحبهــــا ، كل ما أطلبه أن اعرف المراة التى تحبها لكى اترك لها البيت ... من هى ؟

فأطرق الى الأرض ثم قال :

ــ اجل ... لا اخفى ... اننى أحب

ــ آه ! لقد اعترفت ... من هى ؟

ــ انت !

***

واختلجت أهـدابى فى حركة سريعة ، ثم اقترب منى وقبض على ساعدى فى رفق واستمر قائلا :

ــ اننى احبك يا « ياميمى »» كما كنت احبك ، برغم كل ما تفعلينــــه وما يثير اكثر الناس هدوءا ولكننى أرجوك ، بل أتوسل

اليك أن تترفقي بي . حكمي عقلك قليلا ياحبيبتي انني الى هذه اللحظة التي أحدثك فيها لم أتغير قط ، ولكنني اخشى اذا استمرت هذه الحالة أن تسممي حبنا .

ـ اذن فأنا المخطئة المتجنية ، وانت المسكين البرىء الذى لا يدرى ماذا يفعل لكي يتخلص من اساءتي . أليس كذلك ؟

ـ لم أقل هذا يا حبيبتي ، انني اخشى على أعصابك . انك لا تحسين ما تفعلين ولا تتبينين ضرره عليك . ان حالتك لم تعد عادية

ـ طبعا الست رجلا كغيرك . . بعد ان اعطيتك كل شىء . . شبابي وعاطفتي . واخلاصي . وصحتي ، اصبحت تفضل أية امرأة اخرى جديدة علي

ـ دعي هذه الافكار الجنونية يا « ميمي » . . يخيل الى أن السبب في تعلقك بها يعود الى انك لاتصرفين اهتمامك في البيت الى شىء آخر . لم أرك مثلا تقضين بعض الوقت في رسم صورة بيدك . او حياكة ثوب لطفلتنا . أو الاشراف على الطاهية الحبشية التى احضرتها معك من بيت ابيك ، فلم نستطع ان نتذوق طيلة العامين السابقين أكلة شهية واحدة ، ومع ذلك فانك مصرة على ابقائها

ـ آه ! انا التى لم اطبخ فى بيت أبي ولا فى بيتك عندما تزوجتك طبيبا ناشئا خامل الذكر لا تكاد تكسب عشرين جنيها فى الشهر ، تريدمني الآن ان ادخل المطبخ بعد ان ذاعت شهرتك واصبح لا حديث للناس الا ذكر ارباحك ؟

***

وخارت قواي واجهشت بالبكاء واحسست بصداع شديد ، فرفعت يدي واعتمدت بها جبيني ، ولكنني لاحظت انه يسارع الى جس نبضي ليتبين درجة الحمى عندي . فأسرعت

بمغادرة الغرفة وانا اعض على شفتي ؟ ؟
أية امرأة لعينة استطاعت ان تسرقه مني ؟
لو انني عرفتها لهرولت اليها وانشبت اظافري في عنقها ثم مزقت وجهها بأسناني ولكن ..
ولكن كيف يمكن ان استعيد زوجي الى جانبي وان استرد حبه وحنانه وعطفه ؟
واشتدت حيرتي واسودت الدنيا في عيني وبدأت اعاني مشقة في التماس النوم . .
ولاحظت عند الوقوف في الصباح امام مرآة غرفتي بعد ليالي الارق المسهدة القاسية ، شحوبا مخيفا يعلو وجهي . وخطوطا رفيعة رهيبة ترتسم على محياي . .
ومع ذلك فانني لم اكن قد تجاوزت الثالثة والعشرين ؟
وعاد احمد ذات مرة في الليل وانا اتقلب على فراشي احاول النوم عبثا . .
فدخل الى غرفتي وسألني عمابي ، ولما اضاء النور ونظر الى وجهي هز راسه في الم وقال لي :
ـ أهكذا تهملين شأنك الى حد اتلاف عينيك ! حرام يا «ميمي» ان مصر كلها ليس فيها عينان في جمال عينيك .. لم لم تخبريني ؟
واسرع الى العيادة ففتح بابها ثم عاد بقرص في يد وكوب ماء في اليد الاخرى ، وناولني الدواء وهو يقول :
ـ خذي هذا الدواء يا حبيبتي لتنامي ملء جفنيك . . . ثم احلمي بي
وانحنى على ليطبع قبلة طويلة على فمي ، ولما اراد ان يعود الى غرفته ، بعد ان جذب الغطاء و ستر به عنقي ، تشبثت به وقلت والدموع تخنق صوتي :

ــ احمد ! لو تعرف كم أحبك . احبنى ربع حبى لك . خمس حبى . بل عشر حبى . انا راضية

فربت على وجنتى بيديه وقال :

ــ الا تعرفين اننى احبك ؟ اننا نستطيع ان نكون أسعد زوجين لو استطعت ان تحكمى اعصابك ،غيرى هذهالطريقة التى تعاملينني بها وسترين انسعادتنا ستصبحمضرب المثل

ولما غادر غرفتى واغلق البابخلفه ابعدت الغطاء عن جسمى ثم قفزت الى منتصف الغرفةواخذت احدث نفسى وانا امام المرآة . .

« احكم اعصابى ، واغير الطريقة التى اعامله بها ! ولم لا يغير هو طريقة معاملته لى ؟ لم لايعودالى بيته مبكرا كما يفعل سائر الرجال ! »

واردت ان اناديه واصارحه بأننى ندمت على اننى طلبت اليه ان يحبنى عشر حبى له واننى لا أرضى الا بأن يحبنى كما احبه وان يبدأ هو باصلاح خطئه الذىلوث هناء حياتنا

وتقدمت الى البـاب ولكننى خجلت لان الدموع انهمرت من عينى فخجلت من أن أتظاهر أمامه بالقوة وانا على تلك الحالة من الذلة

***

وفى صباح اليوم التالى دخلاحمد الى غرفتى ومعه زجاجة دواء فلم يكد يدني الدواء من فمى حتى ابعدته عنى فى حركة عنيفة وانا اصرخ فى وجهه :

ــ لا . . ابدا . اننى لااتناولدواء من يدك . . من يدرى ! ربما كان هذا سما . .

اننى اشك فيك . . ربما تريد ان تتخلص منى .

وامتقع وجه احمد وسألنى فى صوت مرتجف :
ــ ما هــذا المزاح الثقيل يا « ميمى » !
ــ اننى لا أمزح .. انك طبيب وفى اســتطاعتك ان تسمنى تدريجا ، فتعطينى كل يوم جرعة فامــوت دون ان يســتطيع احد اثبات شىء عليك ، اذا كنت مريضــة حقا فانقلنى الى بيت ابى لأعالج هناك . لن امكنك من ان اموت هنا لكى تشمت « هى »
ــ من « هى » ياحبيبتى ؟
ــ لست حبيبتك ، بل « هى » حبيبتك « هى » التى تريد أن تسمنى لــكى يخلو لك الجــو فتحضرها الى هــذا البيت .. اريد ان اموت فى « المنيرة » . فى بيت ابى ..
فهز رأسه ووضع الدواء على المائدة الصغيرة القريبة من فراشى ثم دنا منى وهو يقول :
ــ انك متعبة .. متعبة جدا يا « ميمى »
ــ طبعا .. طالما أكدت لك ذلك فلم تصــدقنى . وكنت ترهق نفســك من اجل الغير ولا تعنى بى . تهملنى وحدى فى البيت . لو كنت ادرى اننى سأعامل فى هــذا البيت كما تعامل الــكلاب الضالة لتداركت الامر منذ زمن طويل .. الا تعرف الرحمة طريقا الى قلبك ؟

***

وتأثر احمــد لحالتى فجلس على حافة الفراش ، واخذ يربت على يدى فى رفق حتى هــدأت فاســتأذن وخرج الى عمــله عمله .. ولم اكد اســمع صوت سيارته تبتعــد حتى قفزت الى منتصف الغــرفة وانا اضحك بصوت عال ! فقد انتصرت .. اذ تبينت اننى لن استرد احمد الا اذا وثق من اننى مريضة وفى حاجة قصوى الى عنايته !

ولكن كيف يمكن ان ابقيه دائما الى جانبى ؟ انه طبيب وهو يعلم اننى لا اشــــكو من مرض معين ، واذا تظاهرت بمرض ما ، استطاع ان يكتشف ذلك بسهولة . .

وخطرت لى اذ ذاك فكرة هائلة . .

اجل يا سيدى خطرت يومئذ اجرا فــكرة يمكن ان تمر بخاطر امراة فى سنى اذ ذاك . .

خطر لى ان اتظاهر بالجنون !

ما دام زوجى احمد قد انصرف عنى ذلــك الانصراف الذى نغص على عيشى وهدم آمالى ، واحال حيــاتى جحيما لا يطاق وما دمت قــد تبينت اننى لن اســـتطيع اســترداده الا اذا مرضت . فلأمرض . . لأمرض مرضــا مستعصيا يثير شفقته ويوقظ غرامه القديم !

وعــدت بذاكرتى الى ذلك الشهر الحالم الذى عشناه معــا عقب زواجنا فى جزيرة شدوان تحت سقف كوخ صغير ، نخرج فى الصباح لنبحث عن طعام اليوم فى قارب حارس المنارة الانجليزى العجوز ، ثم نعود فى المساء لنشوى الســمك . ونغنى ونرقص كأننا ملكان على تلك الجزيرة النائية .

تذكرت ليلة حالكة الظــلام ، كنت قد جلست فيها امام باب الكوخ الصغير الذى كنا نعيش فيه وقــد اعتمدت راسى بيدى واخذت اراقب احمد وهو يعد « الراكية » لكى يشــوى سمكة كبيرة اصطادها فى الصباح وعلقها على مقربة من باب الكوخ .

وسالنى :

مالك لا تتحركين يا « ميمى » ؟ هيــا احضرى الــكبريت من داخل الكوخ واشعلى الحطب .

ــ فأجبته وانا أهز كتفى :

ــ لم يا حبيبتى ؟

ــ طلب منى حارس المنارة هذا الصباح الا نشـــعل النار اثناء الليل خشية ان يلتبس الامر على احدى السـفن المارة ، بين نارنا وضـــوء المنــارة ، فكل ربابنة السفن التى اعتــادت المرور من هذه المنطقة يعلمون ان « شدوان » جزيرة لا يسكنها احد .

ــ اذن خفضى النـــار التى ستشعلينها .

ــ كم أود أن ينطفىء ضـوء المنارة .. ان ينطفىء الى الابد .

فنظر الى احمد كما ينظر الى طفلة ثم اقترب منى وسألنى :

ــ لمــاذا ؟

ــ لكى تضـــل الطوافة التى ستقبل لتأخذنا بعــد غد ، فلا تتبين الطريق الى « شدوان » .

وعندئذ ارسل ضحكة عاليــة مرحة وانحنى على يغمــر راسى بقبلاته وهو يقول :

ــ هل يخيل اليك ان الحيــاة هنا ممكنة اذا طالت ؟

ــ اجل . ممكنة . بل سعيدة . ما كنت اتصـــــور قط اننى سأشعر بالسعادة التى شعرت بها فى الايام التى قضيتها هنا .. لقــد مرت كالحلم . لا اطمع فى اكثر من هذا . . لو ظل قوتى الوحيد هو السمك الذى نصطاده لما مللت . . انك تعلم اننى لم أعتد ابدا فى بيت ابى ان اجلس امام « طشت » الغسيل ، ومع ذلك اقسم لك يا أحمد اننى عندما غسلت بيــدى « بيجامتى » الوحيدة التى احضرتها معى كنت اغنى فرحا . واخذت اعدو وانا اعصرها بيــدى ثم نشرتها على سطح الكوخ لكى تجففها أشـــعة الشمس . ولمــا عدت انت من الصـــيد وجدتنى قد ارتديتهـــا نظيفة كما لو كان « الكواء » قد احضرها فى صباح نفس اليوم .

وقد انصت احمد الى كلماتى فى هدوء فلما انتهيت هز راسه وقال :

ـ كنت اعلم ان الحياة هنا ستروقك ولكن الى حين . . فليس من المعقول ان يبقى الانسان فى مثل هذه الجزيرة القاحلة . المنعزلة عن العالم شهورا او اعواما . ان الحياة هنا خطرة على الاعصاب . هذه الوحدة المخيفة التى لا انيس فيها الا صوت الماء المرتطم بصخور الشاطىء ، هى التى تنتهى بمعظم حراس المنارات الى الجنون . .

وتلفت احمد حوله ثم انحنى على وقال : . .

ـ الم تلاحظى حالة هذا الرجل الهرم الذى يحرس منارة « شدوان » انه ليس طبيعيا كغيره من الناس . انه مجنون . . احيانا يقبل عليك ضاحكا بملء فيه ، حتى ليخيل اليك انه على وشك ان يروى فكاهة بارعة قراها فى مجلة من المجلات التى تتلقاها مصلحة الموانى والمنائر من المتبرعين لهؤلاء الحراس فى مناسبة عيد الميلاد ، ولكنه لا يلبث ان ينحرف عنك ويعبس ثم يلف حول شاطىء الجزيرة . . واحيانا اخرى تجدينه مستلقيا على الرمل يكتب عليه ارقاما لا يعرف لها الواحد اولا من آخر . ثم يجمع بعضها على البعض . ويطرح ، ويقسم على غير هدى ، كأنه يحاول حل معضلة معقدة . انه مريض . .

ـ وهذا المرض . اليس له من علاج ؟

ـ علاجه ليس امرا هينا يا مديحة ونحن لانعتبر اطباء الامراض النفسية ، اطباء بالمعنى الفنى . لان علاجهم لهذه الامراض قائم على التحليل لا على المشرط او الدواء .

***

تذكرت ذلك الحديث الذى دار بينى وبين احمد قبل ذلك بعامين وصممت على ان اتظاهر بالجنون ! لن يخطر بباله ابدا اننى كاذبة . .

ولشد ما دهشت فى اليوم التالى عندما رأيت احمد يدخل غرفته متهلل الوجه وهو يقول لى :

ــ الديك مانع يا « ميمى » من تناول الغداء فى حلوان اليوم .

ودققت النظر الى عينيه ثم قلت :

ــ حلوان ؟ !

فدنا منى ثم ربت على وجهى فى خنان وهو يقول :

ــ أجل أود أن نتناول الغداء . . . انت وانا فى اى مطعم نصادفه هناك . مطعم مصرى اوسورى او يونانى . ونأكل اى طعام نجده كما لو كنا سائحين هبطا مصر للمرة الاولى ثم نسير جنبا الى جنب فى الحديقة اليابانية . اتعرفين اننى لم ارها منذ كنت طالبا فى كلية الطب ؟

ــ وكيف كنت تريد ان تراهابعد ان تزوجت ! ان هذا النوع من الحدائق قد جعل للعشاق .

ولاحظ احمد اننى استعد لثورة فتكلف الابتسام وقال :

ــ من أجل هذا قلت لك انى لا أود أن أذهب الا معك

وفى أسرع من لمح البصر ارتديت ثيابى وأنا سعيدة لهذا التغير العجيب الذى طرأ على طريقة معاملة أحمدلى

وجلست الى جانبه وانطلقت السيارة تعبر بنا كوبرى شبرا وتخترق شوارع العاصمة متجهة الى مصر القديمة

ولما مرت السيارة بمحطة الترام القريبة من منزل ابى فى المنيرة ، تعمد احمد ان يبطىء السير قليلا والتقت نظراتنا .. كان يذكرنى بالايام التى اعتاد أن يتظاهر فيها بانتظار قطارات الترام فى ذلك المكان ، لكى يتمكن من اختلاس نظرة الى وانا واقفة خلف نافذة غرفتى المطلة من بعيد على شارع القصر العينى !

ووصلنا الى حلوان . واوقف احمد السيارة أمام مطعم سورى ،

وهبطت خلفه ، ثم دخلت وجلس احمد الى مائدة فجلست امامه .

كان المطعم خاليـــا ، وكانت مائدتنا هى اقرب الموائد الى نافذة المطعم المطلة على صحراء حلوان الممتدة الى مالا نهاية !

وانقضت فترة ســكون أطلت النظر اثنـــاءها الى الرمال التى كانت تبرق تحت ضوء الشمس ثم التفت اليه وسألته :

ــ هل جئت الى هذا المكان من قبل ؟

ــ ابدا ولا أعرف اسم المطعم حتى الآن

واقبـــل خادم المطعم . فطلب احمد ســـمكا مشـــويا دون أن يستشيرنى . ماذا يقصد أحمد باحضارى الى ذلك المطعم ، حيث الرمال المتراكمة تحت نافذته . . ولماذا يتعمد ان يكون طعامنا من السمك المشوى !

لم استطع اذ ذاك ان اتحرر من ذكرى الايام التى قضـــيناها فى « شـــدوان » . ذلك النوع من السمك الذى لم اذق له طعما منذ حملتنا الطوافة العائدة الى مصر ، لأننى لم أشأ بعـــد ان لاحظت التغير الذى طرأ على اخلاق زوجى ، ان ألوث ذكرى الايام التى كنت أطهى فيهـــا ذلك الطعام بيدى واقدمه الى الرجل الذى كان ــ اذ ذاك ــ لى . ولى انا وحـــدى دون غيرى من نساء العالم !

ولما انتهينا من تناول الطعام ، قام احمد فتبعته الى الخارج والتفت الى ونحن نهم بركوب السيارة وقال :

ــ آه تذكرت . . . ان زميلا ايطاليـــا لى يملك هنا « فيلا » تحيط بها حديقـــة جميلة ، وقد رجانى أكثر من مرة ان ازوره لو مررت بحلوان . مـــاذا ترين لو ذهبنا لزيارته ؟

فوافقت وذهبنـــا الى المنزل الخلوى الذى اتخـــذه الدكتور مارسيالى عيادة ومصحة

ولاحظت عنـــدما انتهينا من صعود السلم الرخامى الذى يقود

الى مكتب الطبيب،ان(التمورجى)كان يتقدمنا ، كأنما كان احمد على موعد ، ولكنى لم أصارح زوجى بتلك الملاحظة !

ودخلت المكتب . كان الدكتور مارسيالى فى نحو الخامسة والاربعين . طويل القامة . حليق الشارب واللحية . يشيع الشيب فى شعر رأسه الغزير ، وبعد ان تبادل معنا كلمات التحية العادية بدأ يوجه الى نظرات فاحصة دقيقة !

كانت عيناه تحدثانني بأنه على علم بالشيء الكثير عنى ، فلا شك أن احمد قد حدثه بشأنى

وراقبت خلسة تلك النظرات التي كان الاثنان يتبادلانها ،وهما يشيران من طرف خفي الى ارتعاش أطراف أصابعى !

آه . . لقد استطعت اذن أن أخدع احمد فصدق اننى مصابة بخلل فى قواى العقلية ، وأسرع الى زميل له من الاخصائيين فى الامراض العصبية ليستشيره فى أمرى !

كانت فرصة سانحة ، عولت توا على انتهازها لكى أستعيد زوجى ، لكى انتزعه من احضان مريضاته الجميلات ، اللاتى يكشفن أمامه داخل غرفة عيادته المغلقة الابواب ، عن صدورهن التى تفوح منها أنواع العطور المختلفة !

وتلفت حولى اذ ذاك وفتحت أنفي ثم تظاهرت بأنني أشم رائحة وتمتمت :

ـ هنا عطر « متسوكو » •• أتحب هذا العطر يا «دكتور» ؟

وعاد الاثنان يتبادلان النظرات• ودنا الطبيب الايطالى منى ثم قال فى لهجة يبدو التأثر عليها:

ـ انه عطر جميل ولكنك تخطئين فليس فى هذه الغرفة الا رائحة صبغة «اليود» ربما كان هناك وجه شبه بين الرائحتين••

واحسست أنه قال ذلك لكى يسايرنى فقط كأنه كان يتحدث

الى مجنونة ! حتى ذلك الطبيب الاخصائى بدأ ينخدع بحالتى وسألنى :

– أتحلمين ياسيدتى أحيانا أحلاما غريبة ؟

ففكرت ثم أجبته بدون أن يبدو على أننى كنت أكذب :

– آه ! طبعا . أحيانا أرى رجالا ونساء يسيرون على حائط غرفتى ، فلما أتحدث اليهم يجيبون .. أؤكد لك يا «دكتور» انهم يكونون غالبا فى غاية الظرف معى ، الى حد اننى أغادر فراشى وأسير معهم . فنظل سائرين الى أن نصل الى شاطئ الجزيرة وعندئذ يدركنى التعب فأجلس على العشب وأدلى قدمى فى الماء ثم التفت حولى فلا أجد أحدا .. ولكن العجيب اننى لا أخاف تلك الوحدة ..

***

ألقيت هذه الكلمات بهدوء فلما انتهيت من آخر كلمة نظرت الى الاثنين لأمتحن مبلغ تأثرهما من ذلك «التمثيل» الذى دهشت أنا نفسى لتوفيقى فيه توفيقا لم أكن أتوقعه !

كان زوجى اذ ذاك يشخص الى بعينين ذاهلتين .. كانت الدموع تنهمر منهما .. كان المسكين قد اقتنع آخر الامر بأن زوجته أصيبت بمس فى عقلها !

وتقدم الطبيب الايطالى فضغط على جرس موضوع فوق مكتبه وفتح الباب على الأثر وظهرت ممرضة عجوز فى ثياب بيضاء تبدو الشدة والصرامة على قسمات وجهها ، ولم يكد يشير اليها حتى تقدمت الى ومدت يدها فأمسكت بذراعى . وجذبتنى فتبعتها الى غرفة مجاورة وأومأت الى فاستلقيت على مقعد الكشف ، وأدنى الدكتور مارسيالى زجاجة من انفى وهو يقول :

– لا تخافى يا سيدتى ...

واستغرقت في شبه غيبوبة • وسمعت أحمد يقول له بالانجليزية:

ـ انني مسئول عن هذه النتيجة التعسة ، لقد خيل الى في بادىء الامر أنها كانت تبالغ في تصوير حالتها • ولكن يظهر انها في أسوأ حالات المرض •• فما العمل يا دكتور ؟

وبعد قليل شعرت بالطبيب يدق على أطراف أصابع قدمى بعد أن جردهما من الحذاء والجوارب بشىء معدنى ثقيل •• ثم دق على عظم ساقى وأخذ يثني ذراعي ويتركه يتدلى وكرر ذلك عدة مرات !

***

ولما غادرت المصحة سألت أحمد عما حدث فتكلف الهدوء والابتسام وأجابني :

ـ لاشىء • لقد انتهزت فرصة زيارتنا له ودعوته للكشف عليك •• لاشىء بالمرة

ولكنه كان يمثل هو الآخر ، كان صوته مرتجفا وكان شكه في اضطراب قواى العقلية قد تحول الى يقين : وأردت أن أمتحن شعوره الجديد نحوى فقلت له والسيارة تنهب الطريق الزراعى عائدة الى القاهرة :

ـ مارأيك في السفر الى الاسكندرية لقضاء يومين •• لقد أكدوا لى أنها جميلة في الشتاء •

ولشد ما دهشت عندما رأيته يجيبني :

ـ بكل سرور ياحبيبتي

ولاحظت في مساء نفس اليوم انه تحدث في التليفون الى زميل له يرجوه ان يمر به في صباح اليوم التالى لكى يتولى الاشراف على العيادة أثناء غيابه ؟

أى نصر !

***

ولما عدنا من الاسكندرية ، بعدأن مكثنا بها سويا ثلاثة أيام ، تبينت أن زوجى لم يفقد عقيدته فى مرضى وأنه اعتبر الهدوءالذى لاحظه على فى الاسكندرية وقتيا . وكان من اليسير بعد ذلك أن أمثـــل «الدور» الرهيب الذىاخترته لنفسى !

وحدث بعد عودتنا بيومين ان كنت مســتلقية فى المســاء على المقعد الطويل فى غرفة نومىوقدمللت من قصـــة كنت أقرأها فألقيتها جانبا،ثم لمحتأحمديتقدمالى الباب وهو يسير على أطراف أصابعه ظنا منه أننى نائمة ..

وخطرت لى اذذاك فكرة .. فبدلا من أن التفت اليه ، نهضت فى بطء وتقدمت الى حائطالغرفة وتظاهرت بالرغبـة فى اختراق الحائط كأننى أجهل أنها لامنفذفيها ! وأخذت أهذى بهذهالكلمات التى لامعنى لها .. « لقداحترقتالسجادة .. من قال ان الشاى يغلى ... الم أخبرك أن سنيةرجعت ؟ آى ! كم عدد الاطفال الذين يقتلهم الترام رقم ١٥ كل يوم خميس ؟ »

اوه ياسيدى كم كنت رائعــةفى تمثيل ذلك الدور اللعين .. رائعة الى حد اننى عندما التفتخلفى فجأة ، لمحتزوجىينظر الى وقد اتسعت حدقتا عينيه !

كان يتعذب

ولكننى لم أرث له لأننى تعذبت من قبله أضـعاف عذابه . وفجأة وجدته يغادر غرفتى مسرعا ، وأغلق الباب خلفه ، كأنه خجل من أن يرانى خدم المنزل وأنا على تلك الحــالة ، فطغى على اذ ذاك شعور حيوى بالفرح !

وأرسلت عدة ضحكات عالية ثم أخذت أدور حول نفسى مرارا وأنا أرفع ذراعى .

وتبينت أننى لم أعد أقوى على أن أقف دورانى السريع ..

ولمحت نقطة سوداء في سقف الغرفة ·· واتسعت تلك النقطة ·· ثم ··

ثم لم اعد اعى شيئا .

***

واستيقظت فوجدتني مستلقية على فراش أبيض في غرفة تطل نافذتها على حديقة كبيرة لايفصلها عن الصحراء الا سور حـــديدى تسلقته أغصان اللبلاب الكثيفة !

أين ؟

وقبل أن أهم بالنهوض فتح الباب ودخل أحمد ··

كان شحوب مخيف يضفي على وجهه الاسـمر مسحة من الحزن الجميل !

وانحنى على ثم مد يده ، وأمسك بيدى من تحت غطاء الفراش ·

ــ كيف حالك يا « ميمى » ؟

فابتسـمت ، ورفعت رأسى لكى أتمكن من التدقيق فى عينيه الواسعتين ·

لم أكن قد تمتعت بالنظر طويلا الى تينك العينين منذ غادرت « شدوان » قبـل ذلك بثـلاثة أعوام ! ؟

هل حدثت المعجزة ووفقت فى استرداده ؟!

ــ الحمد لله . ماذا جرى لى يا احمد ؟ أين انا ؟

ــ انت فى حلوان عند الزميل الايطالى الذى زرناه معا · لقد رأيت أن أحضرك الى هنـا لكى تستريحى · منزل هادىء تحوطه حديقة جميلة · بعيدة عن ضوضاء الترام والسـيارات التى تزعج سكان شبرا · لاننى لاحظت فى المدة الاخـيرة ان أعصـابك مرهقة ··

فتمتمت وقد ملأت صدرى بهواء الغرفة ثم زفرته ·

ــ مرهقة

ــ هــذا شيء بسيط . ستتحسن حالتك سريعا .

***

ولما تركنى أحمد يومئذ تبينت أن الممرضة العجوز ذات المعطف الابيض التى رأيتها عندما حضرت مع أحمد للمرة الاولى ، تلازمنى طول اليوم . وكانت ترجونى كلما حاولت مغادرة الفراش أن أنام . فاذا قاومت عمــدت الى «حقنة» وأرسلت في شراييني دواء ملونا لاألبث بعده أن أســتغرق فى النوم .. حتى أثناء الليل ، اذا حدث أن استيقظت وبدأت أتقلب فى فراشى فانها سرعان ماتنتبه من نومها وعندئذ أسمعها تقول لى فى حنان :

ــ نامى يامديحه هانم . نامى ياابنتى . انك فى حاجــة الى الراحة .

ولكننى مللت الحياة فى تلك المصحة بعد بضعة أيام . وطلبت الى الممرضــة أن تخبر الطبيب الايطــالى برغبتى فى العودة الى منزلى .

ولشدة ماذهلت عندما لاحظت أنها ابتسمت ابتسامة مرة !؟ ماذا ؟

لقد تجلت أمامى الحقيقة الهائلة وهى أننى سجينة تلك المصحة المشرفة على صحراء حلوان

وأقبل أحمد فى مساء ذلك اليوم ، وكنت لاأزال طريحة الفراش ، فطلبت اليه أن يعيننى على السير ففعل ، وغادرت الفراش وأنا أعتمد على ذراعه .

ياه !

لقــد انهمرت الدموع من عينى اذ ذاك لأنى تذكرت الايام التى كنا نعدو فيها على صخور جزيرة شدوان ، واعترضتنا منطقــة

كثرت فيها قطع الاحجار المدببة فمد أحمد ذراعه فطوق به خصرى وأعاننى على السير وهو يكاد يحملنى حملا !

وسرت فى الغرفة بضع خطوات ، فلما لاحظ تهدج صدرى من التعب ، أجلسنى على مقعد قريب من شرفة الغرفة • وعرض ساقى للشمس ثم غطاهما بغطاء سميك من الصوف !

كم كان حنونا يومئذ •

وسألته وأنا ألقى برأسى على صدره :

ــ كيف حال نعيمه ياأحمد ؟

ــ بخير • انها عند جدتها فقد اتفقنا على ذلك • وقد علمت أنها مسرورة من اللعب مع سعاد ابنة خالتها • وعبد الرحمن ابن عمها، فهما يذهبان يوميا الى منزل المنيرة خصيصا لأجل نعيمة ويبقيان معها الى مابعد الغروب •

ــ الا تسأل عنى ؟

ــ سألتنى فأجبتها بأنك سافرت الى الاسكندرية وستبقين عند خالها شهرين ثم تعودين •

فأرتعدت ثم صرخت :

ــ شهرين ! لماذا ؟ هل سأبقى هنا شهرين ياأحمد • • لابد أن أخرج معك اليوم • اننى لاأستطيع أن أحرم من ابنتى ومنك أكثر من ذلك •

ــ وصحتك يا «ميمى»

ــ صحتى على مايرام • لست أشكو من شىء •

فقبلنى أحمد عدة قبلات سريعة ثم تركنى بعد أن أكد لى أنه كان يمزح عندما حدد موعد مغادرتى للمصحة بعد شهرين • واننى سأغادرها قريبا •

***

وانقضت بضعة أيام دون أن يحضر احمد لرؤيتى ، واشتد ضيقى من تلك الحياة المملة المتشابهة ، وذات يوم أرسلت ممرضة لاستدعاء « مارسيالى » ورجوته أن يسمح لى بالعودة الى منزلى ولكنه اعتذر وصارحنى بأن صحتى فى أشد الحاجة الى اطالة البقاء عنده ، فصحت فيه :

ـ الى متى اذن ساظل هنا ؟ فتردد قليلا ثم تمتم :

ـ سنة

ـ كيف ؟ لقد أكد لى زوجى أننى سأخرج فى موعد أقصاه شهران

ـ زوجك جراح ياسيدتى واسمحى لى ان اقول أننى أدرى بحالتك منه •

ثم تركنى وغادر الغرفة لكى استسلم للبكاء

فلما حضر أحمد فى ذلك اليوم سردت عليه مادار بينى وبين مدير المصحة وأضفت اليه :

ـ ماذا فعلت ياأحمد حتى تمعنوا فى تعذيبى هكذا من أين تأكدتم أننى مريضة ؟ اذا كنت قد تظاهرت بالجنون ، فانما فعلت ذلك لكى أستدر حنانك • لقد حان الوقت الذى يجب أن أعترف لك فيه بهذا السر • لست مجنونة ياأحمد ، ولم أكن فى يوم ما مجنونة ولا مضطربة الاعصاب • اننى امرأة عادية طبيعية مثل أية زوجة تغار على زوجها ، اغفر لى مافعلته ياحبيبى • اياك ان تصدق اننى مجنونة

لايمكنك أن تتصور كيف أظلمت الدنيا فى عينى عندما لاحظت أن زوجى كان يستمع الى كلماتى وهو يهز رأسه فى حزن رهيب قاتل • كأنه يستمع الى حديث مجنونة فى مستشفى المجاذيب!

وكدت أجن اذ ذاك وتشبثت بكتفيه ثم هززته هزا عنيفا وأنا أصرخ :

ـ أقسم لك بحياة نعيمة ٠٠ ألا تصدقني ياأحمد ؟ بماذا أقسم لك على أنني لست مجنونة ؟وحق حبنا القديم يا احمد انني كنت أخدعك عندما تظاهرت بالجنون

***

واتسعت حدقتا عينيه وتصبب العرق من جبينه وأيقنت أنه يفهم حالتي هذه على أنها نوبة من نوبات جنوني ، فتركت كتفه واخذت أدلل وجنتيه بكفي وأنا أقول بصوت خافت :

ـ لم صدقتم أنني مجنونة ؟ ماذا فعلت ؟ تكلم ٠ هل أعتديت على أحد ؟ هل تجردت من ثيابي وسرت هائمة على وجهي في الطريق ؟ هل حطمت الاثاث أو الزجاج ؟

وأسرعت فدققت الجرس ، ولما دخلت المرضة العجوز هجمت عليها وأمسكت بتلابيبها وأنا أصيح :

ـ من أين جاءكم أنني مجنونة؟ ماذا فعلت حتى أعامل هنا معاملة المجانين ؟ انطقي هل اعتديت على أحد ؟ هل شكا مني أحد ؟ كيف أعد اذن مجنونة ؟

فنظرت الي وقالت :

ـ اهدئي ياسيدتي فان هذه الثورة تسيء اليك ٠ استريحي في فراشك . . ثم التفتت الى أحمد وأومأت اليه ان يترك الغرفة ولكنني أسرعت فتمسكت به وأنا أصرخ :

ـ استدع الدكتور مارسيالي٠ أريد أن أتحدث اليه حالا ٠ أريد أن أصارحه بأنني أعده مجنونا اذا أصر على رأيه في مرضي !

وارسلت عدة ضحكات جافة وأنا أتابع صراخي : كيف يكون هذا

الطبيب اخصائيا في الامراض العقلية ، ثم يزعم أنني مجنونة . أنا التي تظاهرت كذبا بالجنون؟!

***

انقضت الايام والاسابيع والشهور وانا سجينة تلك المصحة الرهيبة .

لااستطيع يا سيدى ان اصف لك حياتي هناك . الحياة وسط النساء والفتيات فريسات النوبات العصبية الحادة وأزمات «الهستريا»، اللاتي كنت ألتقي بهن أثناء ساعات الرياضة في حديقة المصحة. كل ما يهمني أن اذكره هنا ، أنني اصطفيت من بينهن طفلة صغيرة في نحو التاسعة من عمرها ، كانت مصابة بخبل ، وكثيرا مارأيتها تدور حول سور الحديقة وهي تعد على أصابعها أرقاما مختلفة دون انقطاع !

كانت تسمى دولت ، وقد عرفت انها ابنة تاجر كبير من تجار الاقمشة في المنصورة.

تزوج والدها امرأة غير أمها سامتها العذاب حتى أفسدت قواها العقلية . وقد أثارت تلك الطفلة المريضة شفقتي لأنها كانت تذكرني دائما بابنتي نعيمة ، فكنت أعنى بأن تسير الى جانبي أثناء رياضتنا في الحديقة وأقدم لها بعض الهدايا الصغيرة وأطيل التحدث اليها على انفراد .

***

وأقبل الدكتور مارسيالي ذات يوم لينقل الى خبرا غريبا . وهو ان احدى الدول الشرقية قد تعاقدت مع احمد على تولى انشاء بضعة مستشفيات في بلادها ، وأن الحكومة المصرية وافقت على اعارة زوجي لتلك الدولة مدة عامين !

وشهقت شهة حادة !

عامان آخران فى ذلك السجن الرهيب . وخارت قــواى ثم سقطت فاقدة الوعى وتبينت مرة أخرى ان ادعائى الجنون قد خلف تلك العواقب الخطيرة كلها .

ولكننى بعد أن أطلت الحديث انتهيت الى الاقتنـــاع بأن ابعاد احمد عن عيادته وعن مصر سيقطع صلته بأولئك النســاء اللاتى انتزعنه منى

وفجأة وجدتني اضحك ضحكات عالية ! لقد تم انتصارى .

وسألنى الدكتور الايطالى فى حنو :

ــ مم تضحكين يا سيدتى ؟

فأجبت :

ــ لو صارحتك لما صدقتنى

ــ ثقى بأننى سأصدقك . أتريدين ان تقولى انك تتظـاهرين بالجنون ؟

ــ أجل لقد تظاهرت بالجنون وكذبت عليكم جميعا .

فابتسم ابتسامة هادئة ثم قال لى :

ــ أعرف انك أدعيت الجنون . انما أؤكد لك برغم هـذا أن حالتك العصبية قد تغيرت تغيرا كبيرا بعد عودتكما انت وأحمد من رحلة شهر العسل فى «شدوان» . ان الحياة الشعرية الهادئة هناك جعلتك تكرهــين أى لون آخر من الحياة العادية بعدها . لقد أخطأ احمد باصطحابك الى تلك الجزيرة لأنه من العسير بل من المستحيل على اى زوج أن يوفر لزوجته حياة زوجية مستمرة على نمط الحياة التى عشتماها معا أثناء شهر العسل فى «شدوان» ولذلك فأنت تتبرمين بما تبينته بعــد عـودتك من إنهماكه فى عملـه وانصرافه عنك الى مرضاه وكتبه . هذا الفرق الهائل بين الحياتين جعلك تتوهمين امورا لا اساس لها من الصحة . انك توهمت

انه منصرف عنك الى عشيقات وعبث ولهو • فكرة انه يخونك مع غيرك كبرت وتضخمت الى حد أنها أصبحت مرضا . . هذه الفكرة نفسها . هذا النوع من الغيرة مرض • اسمحي لى ان أسميه نوعا من الجنون • أعراضه ما كنت تفعلينه كل يوم من التحرى عن زوجك من كل شخص . والانصات الى وقع خطاه فى غرف العيادة • وشم ثيابه عند عودته • والاستماع من ثقب الباب الى أحاديثه مع مرضاه وزواره •

أؤكد لك ياسيدتي أن احتمال احمد لهذا الجحيم الذى أحييته فيه بغيرتك ، أكبر دليل على أن حبه لك أعظم مما تصورت وتتصورين • أنه لم يخنك • أنت التى خنت نفسك !

***

اقتنعت بماقاله الطبيب لى • ورفعت يدى الى رأسي ثم أجهشت بالبكاء !

لقد اتضحت لى الحقيقة الرهيبة • • اتضح لى أني خربت بيتي • وشردت ابنتي وزوجى • • ووضعت أغلال السجن فى معصمى !

وأثار بكائى شفقة الطبيب الايطالى فربت على ظهرى وهو يقول :

تستطيعين أن تبرأى من هذا المرض • ليست هذه أول حالة تعرض لى • فقد قضيت فى مصر ثلاثين عاما عالجت فيها عشرات الحالات المشابهة • مادمت تعرفين منشأ المرض فان فى استطاعتك أن تتغلبى عليه • عليك أن تؤمنى بأن زوجك لم يخنك •

ووعدته بأن أطيع أوامره وأن أتغلب على ذلك المرض بأن اقتلع فكرة خيانة احمد لى

***

وانقضت شهور اخرى . .

واشتد حنيني لرؤيـة ابنتي نعيمة • وجلست ذات يوم اكتب الى والدتي خطابا بعد أن علمت أنها أرسلت ابنتي الى « روضة الاطفال » في جاردن ستي وهي قريبة من منزل أبي في المنيرة .

ودخلت الممرضـــة فوجدتني منهمكة في كتابة الخطاب ، وكنت قد سألتها ذات مرة عن سبب عدم تردد والدتي على المصـــحة لرؤيتي فأخبرتني بأنها مريضـــة بروماتيزم حاد في ساقيها يمنعها من المجيء •

وتناولت الممرضة الخطاب مني ووعدتني بأن تضعه في صندوق البريد ، ولكني لاحظت أنها كانت تخفي عني شيئا هاما • وأن ذلك الخطاب لن يصل الى والدتي •

وشعرت ذات يوم بحركة غريبة خارج غرفتي • وســـمعت كلمتي « المحكمة الحسبية » وفهمت ان طبيبا من قبل هـــذه المحـــكمة كان يتناقش في حالتي مع مدير المصحة •

وحاولت عبثا أن أفهم سر تلك الالغاز فلم أوفق ، واعتـــدت أن اقضي ساعات النهار جالسـة على مقعد من مقاعد الحديقة أتطلع الى الافق البعيد منتظرة عودة أحمد ، كأنني جالسة على صـخرة ربوة عالية من ربى « شدوان » أترقب أوبته من الصيد وقد ذهب يلتمسه منذ الصباح الباكر !

أوه ! كم جنت على هنائنا أيام «شدوان» السعيدة !

الى أن كان ذات صباح • وكنت مستغرقة في النوم ففتح باب غرفتي فجأة وسمعت صوتا يقول :

ــ «ميمي» ! أما زلت نائمة ؟

وبسرعة أبعدت الغطاء عني . وهرولت الى الباب •

كان احمد واقفا ، وقد حمل ابنتنا نعيمة على صـــدره • •

ونظرت اليها طويلا ثم ارتفع صوت بكائي •

لك – ياسيدى – أن تتصور سعادتى اذ ذاك .

لقد عادت ابنتى وعاد زوجى الى وغمرتهما بقبـــلاتى . مئات القبلات .

وأجلست ابنتى على ساقى ، ثم ضممتها بكل قوتى الى صدرى!

وأخبرنى أحمد بأنه عاد مسرعا من الخارج بعد أن تلقى رسالة من الدكتور مارسيالى سرد عليه فيها ما دار من حـديث بينى وبينه .

واقسمت له برأس ابنتنا اننى لن أتشكك بعد ذلك فى وفائه لى.

وقبل ان نغادر المصحة ذهبت الى دولت – الطفلة المريضـة – وقبلتها ثم وعدتهـــا بأن أبذل المستحيل لأعيدها الى ابيها ..

***

اننى اكتب اليك هذه الرسالة وقد مرت ســتة شـهور على مغادرتى المصحة ، علمت فيهـا أن والدتى توفيت وأن أخـوتى حاولوا المساس بحصتى فى التركة منتهزين فرصـة مرضى فاضطر احمـد الى العــودة مسرعا من الخـارج وتقــدم الى المحكمة الحسبية طالبا الحجر على وتعيينه قيما .

وأخبرنى بعض الذين شهدوا تلك الجلسة ان زوجى كان يبكى والقضـاة يحكمون بالحجر على لضعف قواى العقلية !

وأقبل احمـد امس ليخبرنى بأنه طلب من محاميه أن يتقـدم الى المحكمة الحسبية بطلب رفع الحجر عنى . فطوقته بذراعى ثم قلت له :

– لم ياحبيبى ؟ ماذا يضيرنى لو ظللت قيما على طول حياتك . اياك ان تطلب رفع الحجر عنى . ان مالى هو مالك . كلى لك .

ثم عشنا فى قبلة طويلة ...


فاجعة المرج!

وتدت ناهد فى منزل هادىء يتكون من طابق واحد ،وتحيط به حديقة مساحتها نصف فدان،ويفصلها عن الطريق المؤدى الى المرج سور خشبى مهشم ·· وقدشهد هذا المنزل أيام طفولتها السعيدة ، كما شهد أعوام الشقاء الطويلة المضنية التى مرت بها .. انها امرأة شقية . فمنذ خمسة عشر عاما لم تنقطع لحظة واحدة عن التكفير الرهيب القاسى . . . التكفير عن اثم ارتكبته وهى فى العشرين من عمرها ·

أجل !

كان ذلك منذ خمسة عشر عاما . . . مساء يوم من أيام الربيع ·· مازالت تذكره كأنه الأمس ·· كان والدها قد خرج كعادته قبيل الغروب ، بعد أن طبع على جبينها قبلة طويلة،لكى يقضى بعضا من الوقت فى «نادى الزيتون » الذى اعتاد أن يلتقى فيه بأصدقائه · وهبطت هى الى الحديقة لتسقى « حوض» الزهور الذى كانت قد زرعته بنفسها ،ورسمته وفق تصميم خاص ، ونسقت قنواته ، واختارت له طائفة من الزهور كانت قد نالت بعض جوائز على تسجيلها بألوان مائية على لوحات عرضتها فى احدى حفلات مدرسة البنات الامريكية السنوية،أيام كانت طالبة فيها··

كان زهوها بمجموعة زهورها كبيرا · وكانت شهرتها قد وصلت الى زميلاتها من خريجات تلك المدرسة ، فلم تخل حفلة من الحفلات العائلية التى كن يقمنها بمناسبة عيد ميلاد أو اعلان خطبة او «سبوع» مولود جديد . . لم تخل من طاقة «جليول» أو «توبروز» مرسلة منها ومعها كلمة تهنئة رقيقه من « المخلصة الى الأبد : نانا » !

وكانت اذ ذاك شديدةالاعتزاز بصداقة زميلات الدراسة ، سبب ذلك أنها لم تطمئن قط الى فتيات الاسر التى كانت تقطـن تلك المنازل المتباعدة المتنـاثرة ، على الطريق الزراعى بين عزبتى النخل والمرج • أولئك الفتيات اللائى كن يحدجن النظر اليها كلماوقع بصرهن عليها كأنها مخلوق عجيب ، وقد رات من الاوفق الا توطد علاقة صداقة بواحدة منهن ، لأنها كانت تعلم السـبب فى تلـك النظرات المشمئزة التى كن يوجهنها اليها ، فقد اتصل بهن ولاشك ، خبر ذلك الحادث الاثيم أو بتعبير أدق تلك «الفضيحة» التى شهدها منزل أبيها فى المرج ، قبل ذلك بعامين ، عندما أصبح ذات يوم فلم يجد والدتها •• واتضح له ـ كما اتضح للجيران فيما بعد ـ انها هجرت زوجها وابنتها مع ابن عمها ، كانت قد عينته وزارة الخارجية فى احدى وظائف السلك القنصلى بأمريكا ••

لقد اضطرب موقفها فى تلك الناحية الهادئة القليلة السكان •• بعد أن أقدمت والدتها على ارتكاب ذلك الاثم فى حقها وحق أبيها • لقد تركتها بمفردها وسط ذلك المنزل الريفى الواسع ، ولكنهـا خلفت هول الفضيحة وبشاعـة الخيانة الزوجية وقسوة هجران زوج وهبها سبعة عشر عاما هى أعز أعوام شبابه ! • ولقد حاولت ناهد اذ ذاك «أن تجد مبررا لـما ارتكبته والدتها ، حتى يمكن ان تدفع عنهـا وعن نفسها مرارة تلك النظرات اللاذعة المشـمئزة النافرة التى كانت تصوب اليهامن سيدات المنازل المجـاورة ، فاهتدت الى أن ابن عم والدتها الذى هربت معه كان قد خطبها من جدها أيام كان طالبا فى مدرسة الحقوق ، فلما رفض جـدها أن يزوجها له لخلاف قضـائى بينه وبين أخيه •• اضطر ابن العم بعد تخرجه فى مدرسة الحقوق ، أن يشتغل بالمحاماه فى السودان لينساها وليتيح لها فرصة تسعد فيها الى جانب زوجها ، وقـد

حاول أبوها فعلا بعد زواجه أن يشعر والدتها بأنه لها . . ولها وحدها .. وكان شابا جميل الطلعه مهيب القامة ، على جانب من الثراء يستطع به أن يوفر لزوجته الشابة كل ماتصبو اليه من متعة وترف .. ولكنه لم يستطع ان يتغلب على هوايته لكل مايمت الى السباق بصلة ..فبنى ذلك المنزل فى طريق المرج . واقتنى عددا من خيول السباق العربية التى اقام لها هى الاخرى «اصطبلا» فى العزبة التى كان يملكها فى عين شمس ، ووجه كل اهتمامه الى خيوله التى أطلقها فى ميدان السباق ، وكان يعنى بها ويتتبع أخبارها، فيراهن عليها بمبالغ طائلة . وسرت رغبة المقامرة فى دمه وملأت شرايينه وصرفته حتى عن زوجته وابنته، واجتاحت جزءا كبيرا من ثروته، وحاولت والدتها أكثر من مرة أن تثنيه عنها فلم تفلح .. كان اسم احمد بك قدرى يدوى فى أوساط السباق كشخصية من أبرز شخصياتها ، وخيل الى والدتها أن زوجها مستعد لكى يفقد كل شيء مادام محتفظا بجياده وباسمه فى قوائم أصحاب الجياد التى « تجرى » بين الجزيرة وهليوبوليس ! ..

***

لقد توصلت ناهد الى جمع هذه المعلومات التى كانت تجهل الكثير منها ، وهمت ذات يوم ان تفاتح والدها فيها بعد أن انقضت بضعة شهور على سفر والدتها .. ولكنه هز رأسه واقترب منها ، ثم وضع يده فى رفق على شفتيها، كأنه يحبس الكلمات فى حلقها وهو يقول :

ــ انك أعز مافى هذه الدنيا الى قلبى يا «نانا» .. لقد ضاعت ثروتى ولم يبق منها الا قدر ضئيل .. ولكن ثقى أننى لن أراك تريدين شيئا دون أن أسرع الى احضاره لك ، ولن أتردد فى أن

أبيع آخر «شبر» من الارض آلتي بقيت لى ، لكى لا أدعك محرومة مما تشتهين . . ثقى انك لن تشعرى بالحرمان وأنا على قيد الحياة ·· حتى ولا بعد موتى · فقد أمنت على حياتى بمبلغ فيه مافوق الكفاية لك · أرجوك يا «نانا» ألا تعيدى على مسمعى سيرة مااقترفته فى ماضى من أخطاء !

وتهدج صوته ·· واختنق بالدموع ثم ضمها الى صدره العريض، واخفى وجهه وهو يتمتم :

ـ اغفرى لى يا «نانا» اذا صارحتك بأننى أخشى أن يضعف حبى لك ، اذا سمعتك تكررين الدفاع عن أمك ، بل اننى أرتجف لمجرد مرور هذه الفكرة بخاطرى · فلو اننى فقدت حبى لك، لما بقى لحياتى معنى ·· فأنا أعيش لك ·· لك انت وحدك . . عدينى أبا وأخا وأما وأختا ·· وافترضى أن أمك ماتت ·· ماتت منذ زمن طويل ·· لست أول فتاة تيتمت وهى لاتزال طفله ·· هذه ارادة الله ! ··

ومنذ ذلك اليوم عدلت نهائيا عن مفاتحته فى شأن والدتها

***

كان مساء يوم من أيام الربيع، وكانت ناهد قد هبطت الحديقة لتسقى الزهور ·· والهدوء يحيط بذلك المكان وقد اغلقت نوافذ المنازل القريبة ، كأن سكانها أبوا أن يعكروا صفو ذلك الجو الشاعرى الحنون ،فحبسوا عنه حتى أنفاسهم واضواء منازلهم! ··

وأخذ القمر يخطر فى بطء وسط سماء الضاحية ، وقدبدت اشجار النخيل العالية من بعيد متعانقة الفروع ، كأنها أقواس نصر أقيمت لتحية ذلك الكوكب عند مقدمه الليلى الرائع · وفجأة سمعت ناهد صوتا ضعيفا يرتل فى حنان أغنية «بلدية » · وخيل اليها أنه قروى عاد من حقله مهموما مكتئبا ، فأخذ ينفس عن

كربته بتلك الاغنيـــة الحزينةالمتحبة ..ووضعت«الرشاشة» الى جانبها وأخذت تنصـــت الىالصـوت المقبل من بعيـد . . يكرر كلمات الأغنية في شعوروصادق بالالم وهو يقترب شيئا فشيئا ، حتي وصل الى ســور حديقتها ، فلمحت شبحايتوقف. ثم تلفت حوله كأنه يريدأن يتحقق من أن أحدا لن يراه ، ولشـد ماكانت دهشتها عندما تبينت على ضوء القمر انه لم يكن قرويا.. بل كان شابا مديد القامة نحيفا يرتدى «بنطلونا» رياضيا قصيرا وقميصا فاتح اللون قصيرالكمين، وقد ترك شعره الاسود الغزير في فوضى ثائرة ، ولم يعن بأن يمر بيده عليه !.

وخطر لها أن تعرف ماذاينوى أن يفعل ، فأسرعت بالاختفـاء خلف شجرة الجميز الكبيرةالتى تقوم الى جانب باب الحديقة ،واذ ذاك رأته يمد يده من بين ألواح السور الخشبية فيقتطف قرنفلة حمراء من حوض الزهور ثم يتابع سيره وهو ينشد أغنيته .

واخذت ناهد تدور فى بطء حول جـذع الشجرة وهو يمر من امامها ، لكيلا يراها ، ورن الصوت فى أذنها فزادت دهشتها لانها تذكرت انهـا سمعت ذلك الصوت من قبل . واقترب من المكان الذى اختفت فيه فاستطاعت أن تدقق النظر فى قسمات وجهه وعرفته !

***

كان عادل صـــادق ، أخا زميلتها درية ، وابن ابراهيم باشا صادق ، الذى اشترى ارضا فى المرج وبنى عليها قصرا فخمـا تلف به حديقة كبيرة .

وخرجت فجاة من مخبئها ، وتقـدمت الى حوض الزهور حاملة « الرشاشة » كأنها لم تلحظ شيئا

وتوقف عادل عن الغناء ، ثم سمعته يقول فى صوت مرتجف،

وقد رأى شبحا أبيض يسير فى ظلام الحديقة :

ـ من ؟..

وعندئذ رفعت رأسها ونظرت اليه فصاح وهو يدنو من السور:

ـ نانا ؟..

وتظاهرت بأنها لم تعرفه ، فاستمر قائلا :

ـ ألا تعرفينني يا ناهد ؟ .. أنا عادل اخو درية ..

فابتسمت وقالت له وهى تدنو من السور :

ـ آه .. كيف حالك يا عادل بك ؟..

ـ منذ متى حصلت على هذا اللقب ؟.. لعلك تريدين ان اقول لك يا ناهد هانم !.. لا . لقد كبرت حقا، ولكنى ساظل اناديك كما كنت افعل منذ طفولتنا .. لقد كنت لى وستظلين « نانا » فقط !

وعاد السكون يخيم على المكان .. وتبين عادل انها ، لاضطرابها ، لم تنتبه الى ان يدها كانت قابضة على «الرشاشة» والماء يتساقط منها حتى غمر المكان الذى كانت تقف فيه .. فمد يده فى رفق وتناول «الرشاشة» ثم وضعها على الارض وعاد يسألها :

ـ لم تسألينى عن درية ؟.

ـ وهل سألت هى عن أحد ؟.

ـ أعذريها يا نانا .. فمنذ توفيت والدتى لم يعد لديها الوقت الكافى للتفكير حتى فى نفسها .. لقد تراكمت عليها مسئوليات الأسرة كلها

ـ ومع ذلك فقد خطر لى ان ازورها لكى أعزيها . ولكنى علمت ان عمى ابراهيم باشا قد حذرها من الاتصال بى . وهددها امام الخدم بأنه لو رآنى فى بيته لكسر راسى وراسها !

وفهم عادل ما ترمى اليه ولكنه لم يشأ ان يشير بحرف الى موضوع والدتها ، بل اطرق الى الارض هنيهة ، ثم تنهد تنهيدة حارة طويلة وقال :

ــ يبدو لى انك لم تعرفى ما فعله أبى بعد وفاة أمى .. تصورى انه تزوج قبل ان تنقضى اربعة اشهر على وفاتها !

وأثر فيها هذا الحديث تأثيرا عميقا فسألته :

ــ وماذا فعلتما انت ودرية مع الزوجة الجديدة ؟.

ــ تركنا لها البيت. لايمكنك يا «نانا» أن تحسى شعور الابن عندما يرى امرأة أخرى تنام على نفس الفراش الذى كان لأمه .. وتأكل على نفس المائدة التى كانت تأكل أمه عليها . وتنهر الخدم الذين تولت أمه تربيتهم .. وتغير وتبدل فى الاثاث الذى أحبته أمه . أنه شعور مؤلم يحز فى النفس ويجرحها . ان مصيبتك هينة . هينة جدا .. يجب ان تحمدى الله على ان اباك لا يزال محافظا على شعورك بعدم التزوج من اخرى .. ايخيل اليك انه من السهل على درية أختى وعلي ، أن نعيش عند خالتى فى شبرا ، بعد ان قضينا أعز ايام حياتنا فى بيت ابينا .. بيت المرج الذى اصبحت لاازوره الا كالغريب، عندما أعلم ان أبى مريض او عندما أحضر لتهنئته بالعيد .. او لقبض مصروفات الكلية

ــ آه . على فكرة .. ماذا فعلت هذا العام فى امتحانك ؟.

ــ سأتقدم الى دبلوم قسم المبانى بكلية الهندسة . وقد اعتزمت أن استأجر بمرتب أول شهر منزلا أسكنه أنا ودرية ، فلا نشعر بعد بالحاجة الى أبى

ــ أننى مؤمنة بأن الله لن يتخلى عنكما

ــ أعرف منذ زمن طويل أنك تحبين لنا كل خير . . أتذكرين

يا «نانا» عندما كنت طفلـــه لم تتجاوزى العاشرة من عمـــرك ، وكنت تنتظريننى على باب هذه الحديقة ، الى أن أعود من المدرسة السـعيدية ، فتسرعين الى وأنت تصيحين : « وحياة أبيك ياعادل حل لى مسألة الحساب ! »فأدخل معك الى غرفة المكتب وأبدأ فى حل المسألة ، وقبل أن أنتهى منهـا افاجأ بدخول الخادمة الحبشية التى كانت عندكم ، فتنظر الى شزرا ثم تقول لك فى لهجة حادة : « عشاؤك جاهز ياست نانا ! »

وأرسلت ضـــحكة مرحة وتمتمت :

ـ كانت أياما حلوة !٠

ـ ألا تزال هـــذه الخادمـــة عندكم ؟٠٠

ـ لا ٠٠ لقد تزوجت من طاهى الجيران ٠٠

ـ ألم تحضر للسؤال عنك بعد زواجها ؟

ـ أبدا ٠٠ ولماذا تريد منهـا وحدها أن تسأل عنى ٠٠؟

وشعرت نانا اذ ذاك بقسوة الملاحظة ، لأنه حبس أنفاســـه وصمت قليلا ثم مد يده فى بطء حتى وضعها على يدها وقال فى صوت مضطرب :

ـ ثقى يا «نانا» انه لم يمر على يوم واحد منذ تركت المرج، دون ان أسأل عنك ، وساظل اســـأل عنك الى الابد ، فاذا لم أجـــدك فاننى سأقنع بالمرور أمام هـــذه الحديقة

فضحكت وقالت :

ـ واقتطاف وردة منها ! . .

ـ أجل ٠٠ وسرقة وردة !

ـ لاتقل هذا ياعادل ٠٠ ان الحديقة كلها لك ٠٠

ـ وصاحبة الحديقة ؟

وشعرت اذ ذاك ان انامله قد تقلصت على راحتها المتكئة على

السور الخشبى . واقترب وجهه من وجهها . وقرأت فى عينيه الواسعتين مزيجا من معانى الوله، والحنـــان ، والدعة . والألم .
فارتجف جســـمها وحاولت أن تتخلص منه وهى تتمتم فى هلع:

ــ ماذا حدث ياعادل ؟

ــ شعرت منذ زمن طويل بأن الله خلق كلا منا للآخر .. ولكننى لم أجد الفرصة التى تمكننى من مصارحتك بهذا الشعور .. اننى أحبك يا «نانا» ثم جذبها نحـوه وطوقهـــا بذراعه وطبـــع قبلة طويلة على فمها ..

***

فى تلك الليلة لم تذق ناهد طعم النوم ..

كانت غرفتها تطل على الجهة البحرية من الحديقة ، الجهة التى أقبل منها صوت عادل ، وهــو ينشد أغنيته «البلدية» التى هزت احساسها وأثارت مشاعرها وملأت روحها عاطفة وحنينا وألما جميلا، قبل ان تتبين شخصية منشدها . وقد تعمدت أن تترك نافذتهـــا مفتوحة وجلست على « المقعـــد الطويل » ثم القت براســـها الى مسنده ، وشخصـــت الى الأفق الواسع الممتد الذى أقبل منـــه صوت عادل !..

كان الظلام قد ساد المرج . وخفت كل صوت ، حتى أصــوات الطيور ، ولم تعد تصل الى اذنها تلك الانات المتقطعـــة التى كانت ترسلها السواقى التى عهدتهـــا تروى الحقول المجاورة

ولم تشعر بعد قليل الا وهى ترفع يديها لتخفى بهما عينيها، ثم أخذت ترتل فى صوت خافت، مطلع نفس الأغنية التى سمعتها من عادل

وأجهشت بالبكاء .. وحدها .. فى ظلام الغرفة .. ولكنها لم تشعر بمرارة ذلك البكاء كمـــا اعتادت ان تشعر كلمـــا تذكرت

حادث والدتها ، وحرمانهـا من عطفها ، والحزى الذى خلفته لها ، ونظرات الاحتقـار التى كانت تتلقاها من صديقاتها وزميلاتها اللاتى اتصل بهن خبر الفضيحة، .. لا .. لم تشعر ليلتئذ بتلك المرارة ٠٠ فقد كانت سعيدة ٠٠

خيل اليها أن قسوة القدر التى حرمتها من أمها كما حرمت عادل، قد جمعت بينهما ، وأنها لاتملك ازاء تلك الاغنية المنتحبة النادبة التى كان ينشدها ، الا أن تبكى ٠٠ أجل ٠٠ كانت تبكى من أجلـه هو ٠ ٠ من أجل الشقاء الذى صارحها بأنه عاناه بعـد موت والدته وزواج أبيـه من امرأة أخرى ٠٠ وكانت تلك أول مرة فى حيـاتها احست فيها راحـة البكاء من أجل الغير !٠

***

وتكرر بعد ذلك تردد عادل على المرج فى الساعات التى كان يعلم أن أباها متغيب فيها عن المنزل ٠٠ فكانا يلتقيـان دائما عند أقصى سور الحديقة ليتحدثا حديثـا بريئا عن آلامهمـا ٠٠ هو من الخارج ، وهى من داخل الحديقة ، فاذا أزف موعد عودة أبيها ودعها، بعد أن يحمل طاقة الزهر التى اعتادت ان تعدها له ، ليضعها على مكتبـه أثناء مذاكرتـه ٠ وليذكرها كلما تعب بصره من القراءة ، فرفع رأسه ورأى مجموعة زهورها ترنو اليه ، وعرض عليها ذات ليلة ـ وقد علم منها أن أباها مسافر الى «عزبته» بقويسنا ليقضى فيها يومين ـ عرض عليها أن تصحبه الى احدى دور السينما فى مصر الجديدة ٠٠ فصرخت مذعورة :

ـ أجننت ياعادل ؟ ٠ ٠ كيف أدخل أمام الناس مع رجل غريب؟!

فأطلق عدة ضحكات عاليـة ساخرة ثم قال :

ـ لاأدرى من منا الذى جن . أكيف خطر لك يا «نانا» ان اعرض عليك أمـرا يضرك أو يسىء الى سمعتك

ولم تستطع أن تعارضـه ، فصعدت الى غرفتها وارتدت سترة

رياضية بيضاء ،ثم هبطت الى الحديقة فتقدمها الى السيارة التى كان قد تركها على مقربة من نهاية السور وفتح لها الباب

كانت ترتجف وهى تتخذ مقعدها الى جانب عادل..ولكنها تكلفت ابتسامة فاترة .. لتستر اضطرابها خشية أن يفسره بعدم ثقتها فيه . وكأنه لاحظ ذلك فمد يده وأمسك بيدها .. كانت قطعة من الثلج تذوب . . فقد تصبب منها العرق البارد ! .. ولحظت اذ ذاك أنه تجهم وهز رأسه هزات بطيئه ثم قال ،وهو يحدق النظر بحنان الى عينيها :

ـ أكرر لك أنك جننت ..

واستجمعت قواها الضائعة وتمتمت :

ـ اننى خائفة ياعادل

ـ منى ! .. تخافين منى ! . .انت زوجتى يا « نانا »

***

وقاد السيارة .. فى ظلام تلك الليلة من ليالى نهاية الربيع ، وتبينت ناهد بعد قليل أنه لم يكن متجها الى مصر الجديدة كما أخبرها . بل كان صاعدا فى طريق شبين القناطر بسرعة هائلة ..

وخجلت فى أول الامر من أن تصارحه بانه كذب عليها ، ولكنها لاحظت أن السيارة كانت تنهب الأرض ، مخلفة وراءها تلك المحطات الصغيرة التى تلى المرج.. القلج .. الجبل الاصفر ..

والتفتت خلفها فرأت أشجار النخيل تتمايل تحت ضغط الهواء وقد بدت فى الظلام كأنها مردة تحرس طريقا جهنميا رهيبا ، ولم تستطع ان تكتم رعبها ، فالتفتت اليه قائلة :

ـ الى اين انت ذاهب يا عادل ؟ !

فضحك ضحكة صفراء فاترة ،وقال لها وهو يطوقها بذراعه :

ـ هذه أول مرة نسعد فيهابالخروج معا ، فلم لا نقضى هذا الوقت وحدنا ؟ .. أمامنا العمر كله نستطيع أن نقضـــيه فى مشاهدة المسارح ودور السينما .. فى مصر وفى الخارج . اقتربى منى يا «نانا» ووقف السيارة على مقربة من بعض أشجار قائمة على حافة حقـــل ، ترتفع من بين قنواته أصوات الضفادع ، متحشرجة متقطعة كئيبة ، كأنها خارجة من قبور تتهشم عظـام موتاها ! ..

وسرت الرعدة فى جسدها .. وأيقنت أن خطرا يتهددها

وجذب عادل رأسها ووضـعه على كتفه ، ثم تمتم فى رقة :

ـ لم أكره نفسى من قبل كما كرهتها الليلة يا نانا .. لم أكن أتصور قط أنك يمكن أن تشكى فى . . اقول لك للمرة الاخـيرة اننى سأنال دبلوم كلية الهندسة فى هذا العام ، وسيكون لى مرتب يغنينى عن أبى . وسأستقـل بالحياة معك ومع درية أختى .. لن تقتصر مواردى عـــلى مرتب الحكومة ، بل اننى أعرف مقاولا من أقارب أمى ، على أتم استعداد لاعطائى ضعف مرتب الحكومة فى مقابل العمل بمكتبه بعد الظهر .. سأكافح ، وسأعمل ليل نهار ، لأسعدك ولأثبت للذين ظلموك بسبب زلة أمك ، اننى فخـور باعطائك اسمى ، وأننى قادر على أن أتحداهم أجمعين ! . أجل ! .. سترين يا «نانا» أننى سأنسيك أيام الالم .. وليالى البكاء والسهاد التى مرت بك

فلم تسـتطع أن ترد عليه الا بالبكاء .. ذلك أنها كانت تحبه .. تحبه بكل قواها .

***

ولما عادت السيارة الى المرج ، كانت فروع أشجار النخيـل القائمه على جانبى الطريق تطوح بها رياح الليل بعيدا ، كأنهـا

تتوارى خجلا وخزيا ، لأنها شهدت مأساة رهيبة آثمة من مآسى ليلة حالكة الظلام !

وكانا قد اتفقا على اللقاء عند أقصى سور الحديقة فى مساء اليوم التالى ، فلم تذق ناهد طعم النوم منذ أوصلها عادل بالسيارة الى باب المنزل حتى أزف الميعاد .

كان الموقف هائلا . بشعا . مخيفا .. وخيل اليها بعد أن ابتعدت سيارة عادل فى ظلام الليل ، متجهة الى القاهرة ، أن أشباحا سوداء ذات ألسنة من نار تتجمع فى بطء رهيب مقتربة منها وهى تشير اليها ساخرة هازئة . . ! وان همهمة خافتة تسرى بين زهور الحوض التى نسقته وروته منذ طفولتها . كأنها تذكر اسمها بالسخط والغضب والحنق ..! وتلفتت حولها مذعورة وحاولت أن تتقدم الى درج المنزل الرخامى الابيض ، الذى كان يبدو فى سواد الليل كأنه «شاهد» مقبرة فخمة أعدت لها .. ولكن قواها خارت وتبينت أن قدميها لن تستطيعا حملها ، حتى الى ذلك القبر الرخامى ! واستندت الى جذع شجرة الجميز التى تقوم الى جانب باب الحديقة حتى تستجمع قواها . . ولكنها لم تكد تلقى بكتفيها على ذلك الجذع ، حتى سمعت قرقعة مدوية ، ثم سقط شىء ثقيل على رأسها ، فهرولت على الفور الى داخل المنزل لأنها أيقنت أن القدر أبى الا أن يسلط عليها لعنته .. وأن ذلك الفرع الثقيل من فروع شجرة الجميز ، الذى احتملها طفلة وهى تتسلقه ، قد أنف أن يظلها ويحميها فهوى فوق رأسها .. ! واشتد بها الخوف فأخذت تضىء كل أنوار المنزل التى صادفتها فى طريقها الى الغرفة .. ووجدت نفسها فجأة امام صورة ابيها الكبيرة المعلقة على الحائط فى الصدر ..

يا للهول !

كان أبوها ينظر اليها بعينيه الجميلتين الواسعتين وقد تطاير منهما الشرر .. لقد خانت ثقته!.

وخيل اليها أن وجهه أخذ يقترب منها شيئا فشيئا ، وأن انفاسه الملتهبة غيظا وكمدا الهبت جلدها . وان شفتيه قد تحركتا أخيرا لتقولا لها فى صوت يفيض اشمئزازا وكرها : « حتى أنت يا .. قذرة ! » فرفعت ساعدها لتخفى عينيها وهى تصرخ وحدها وسط المنزل الريفى .. !

***

كانت على موعد مع عادل فى مساء اليوم التالى ، ولم يغمض لها جفن حتى هبطت الحديقة فى ذلك الموعد لتلقـــاه .. كانت قواها قد تضعضعت ، بعـــد ان ظلت الليل والنهار التالى بمفردها، فريسة تلك الخيالات المضنية دون ان تستطيع التحدث الى أحد عن شقوتها ، فلم يكد بصرها يقع على عادل حتى القت برأسها على كتفه وأجهشت بالبكاء وهى تتمتم :

ــ عادل ! ..

لقد كانت فى حاجة قصوى الى شخص يسكب فى أذنها بضع كلمات رحيمة تخفف من هـــول الحيرة التى انتابتها . وقد فهم عادل ذلك فطوقهـــا بزراعه وهو يقول فى نبرة حنون :

ــ لم هذا يا «نانا» أكلما وقع نظرك على أجهشت بالبكاء ..؟

وخشيت أن يغضب ، فأسرعت بتجفيف دموعها . ثم رفعت رأسها وشخصت اليه ،وتكلفت الهدوء وقالت :

ــ سامحنى .. لن ترانى باكية بعد اليوم أبدا ياعادل.. سامحنى ياحبيبى

ــ ولكنى أود أن أعرف .. لم هذا البكاء ؟ ..

وترددت قليلا فى الاجابة على سؤاله ووقفت واجمة ..ولكنها

شعرت بأنامله تربت فى رقة على كتفها فأجابت :
ـ أخشى أن أتلفت حولى يوما فلا أجدك الى جانبى
ـ كيف يمكن ان يحدث هذا؟ .. اننى أحبك !
ـ وستبقى على هذا الحب ؟
ـ الى ان اموت
ـ أحقا ياعادل ؟
ـ أنت زوجتى .. أتعرفين أننى كنت على موعد اليوم مع أستاذ العمارة ، وخشيت أن أتأخر عن موعدك ، فكتبت بضع كلمات لأعتذر اليك وكنت اعتزم أن أمر بحديقتك . والقى بهذه الرسالة من خلف سورها ..

ومد عادل اذ ذاك يده الى جيبه وأخرج مظروفا صغيرا فتحه ، ثم أدنى الخطاب الذى كان بداخله من بصرها فقرأت ما يأتى :

« زوجتى العزيزة نانا !

اضطررت اليوم الى الذهاب للجيزة فى أمر هام وخشيت أن يطول انتظارك فى المكان الذى اعتاد ان يشهد لقاءنا ، فسارعت بكتابة هذه الكلمة اليك لكى اعتذر .. وارجو ان اراك غدا .. دائما فى نفس المكان وفى نفس الساعة .. اننى احبك يا «نانا» .. وقد تضاعف حبى لك مرات عديدة .. عدد أزهار «البانسيه» فى حوض الزهر بحديقتك الرشيقة .. أننى أكاد أتيه على رجال العالم اجمع زهوا وخيلاء ، لأننى زوجك . أجل ! .. أنت زوجتى أمام الله وأمام ضميرى منذ أمس . وستكونين زوجتى أمام الناس فى القريب العاجل ، يوم أغادر الكلية . فتشعرين بسعادة الاتكاء على ذراعى ، ونحن نسير جنبا الى جنب أمام أهل المرج فى وضح النهار دون خوف ولا وجل .. اننى اتخيلك وانت تنتظريننى داخل الحديقة بثوبك المنزلى الصافى الزرقه ، وقد

اعتمدت بكفيك علىٰ قائمتين من قوائم السور الخشبى الذى يحيط بالحديقة ٠٠ فبدا وجهك الصغير محصورا بين القائمتين رائعا فاتنا ٠ دائما كأميرة هبطت لتلقى زوجا اختارته خفية عن أسرتها٠٠ أقبلك ٠ أقبلك يا «نانا» وكل ماأرجوه منك أن تثقى بالوفى الى الابد »

***

قرأت هذه الرسالة وهى تتهلل بشرا وفرحا ٠٠ لقد أجاب عادل فيها على كل سؤال كانت تريدان تلقيه عليه ، وبدد كل شك كان يساورها من عواقب المغامرة الليلية الرهيبة التى اقدمت عليها ٠ ٠ وعاد الهدوء يملأ روحها ٠٠ فطوت الخطاب ثم وضعته فى المظروف وحاولت أن تعيده اليه ولكنه فتح حقيبتها وألقاه فيها ٠٠ ولما لاحظ أن شفتيها قد بدأتا ترتجفان وأنها لفرط سعادتها كادت تعود الى الاجهاش بالبكاء ، طبع قبلة طويله على فمها

«انك زوجتى امام الله وامام ضميرى وستكونين زوجتى أمام الناس فى القريب العاجل »

كم من مرة كررت فيها قراءة هذه الكلمات من رسالة عادل التى تعمد أن يضعها فى حقيبتها لكى تطمئن الى وعده ٠٠!

كانت هذه الكلمات عزاءها الوحيد فى ساعات الوحدة الطويله المملة المضنية التى كانت تقضيها واقفة خلف الستارة الزرقاء المسدلة على نافذة غرفتها ، تنظر الى الأفق الهابط عند أقصى طريق المرج ، الطريق الهادىء الجميل ، الذى حمل نسيمه اليها ذات ليلة صوت عادل وهو ينشد أغنيته الريفيه

حقا ! ٠٠ كان قلبها خاليا قبل أن يسوق القدر عادل الى طريقها ولكن ، منذ التقيا على مقربة من حوض الزهور ، أصبح لاشاغل

لها الا التفكير فيه .. كان رجلها الأول ، وكانت تعتزم أن يكون الاخير .. ولقد ظل على عادته فكان يأتى الى ذلك المكان فى مساء كل يوم ، ليتجاذب معها حديثا طويلا .. لايقطعه الا صـوت عربة او سيارة مقبلة من بعيد فتسرع هى بالاختفاء خلف جذع شجرة الجميز . ويتظاهر هو بأنه عابر طريق انهكه التعب فجلس عـلى حافة سور الحديقة ، حتى يستجم لمتابعة السير . فاذا مرت السيارة أو العربة خرجت من خلف الشجرة، واسترد عابر الطريق نشاطه فجأة، فعاد الى متابعة الحديث معها !

ولكن عادل اضطر ان يقلل من زياراته الليلية ، عندما اقترب موعد امتحان (الدبلوم) فأصبحت لا تراه الا مـرة او مرتين فى كل أسبوع ، وقد ضايقها ذلك، ولكنها كانت لا تكتمه رغبتها الشديدة فى ان يتم تعليمه ويتخلص من تحكم أبيه وزوجة ابيه

وأعلنت أخيرا نتيجة امتحان الدبلوم . ولم تكد تاهد تعرف خبر نجاحه حتى هرولت الى درج مكتبها الصغير وأخرجت رسالته التى كانت محتفظة بها .. ثم اخذت تقرأ هذه الفقرة ..

(ستكونين زوجتى أمام الناس فى القريب العاجل) ..والقريب العاجل – لاشك ، هو حصوله على دبلوم الهندسة !

ووجدت نفسها فجأة تفصل من الجريدة ذلك الجزء الذى اشتمل على أسماء ناجحى قسم العمارة، ثم تضعه فى رفق داخل رسالته، وتطبع على الاثنين قبلة طويلة..

كانت اذ ذاك أسعد فتاة فى الدنيا ، لأن الرجل الذى أحبته وأحبها قد أصبح جـديرا بأن تحمل اسمه –علنا – أمام أبيها وامام جاراتها من اهل المرج وامام زميلاتها السابقات فى مدرسـة البنات الامريكية

وأعادت رسالة عادل الى مكانها من درج مكتبها ومعها قصاصة الصحيفه ، ثم هبطت الحديقة مسرعة .. فخيل اليها ان زهورها قد تفتحت لتستقبلها باسمة فرحة .. وتقدمت الى المكان الذى اعتادا أن يلتقيا فيه ليلا ..

كانت ذكريات اللقاء لا تزال باقية فيه ، لان احدا لم يقترب منه غيرهما ، واستطاعت فى ضوء النهار أن تتبين آثار قدميها مطبوعة من جهة على طمى الحديقة . ومن جهة أخرى على تراب ذلك الجزء الملاصق لسورها من الخارج ، هنا الاثر الذى طبعه الحذاء المنزلى الاصفر الذى لبسته ليلة كانت مرتدية ثوبها الرياضى الرمادى ، و . . هنا الاثر الذى طبعه حذاؤها الاسود ليلة كانت مرتدية ثوبها الازرق الذى يحبه عادل كثيرا .. وبضعة خيوط زرقاء ، كانت لا تزال عالقة بشجرة الخوخ .. لابد أنها انتزعت من الثوب عندما سمعت صوت سيارة مقبلة ، فهرولت محاولة الاختفاء خلف جذع شجرة الجميز .. وقرنفلة حمراء ملقاة على الأرض الى جانب أثر حذاء رياضى من أحذية الرجال .. لقد ذبلت تلك القرنفلة ، ولكنها ظلت وفية للحوض الذى نبتت فيه .. لم تزحزحها الرياح التى تهب عادة فى تلك الضاحية النائية ، من مكانها ، بل تشبثت بجدار السور كأنها تأبى أن تفارقه ، وتذكرت ...

تذكرت ليلة سقطت تلك القرنفلة التى قطفتها ليضعها عادل فى «عروة» سترته ، وقد تصافحا عندما أزفت ساعة عودته ، وكانت القرنفلة لا تزال فى يده اليسرى . ثم هم بالانصراف ، ولكنها طلبت اليه ان يملى عليها « كلام » موال بلدى كان قد انشده ليلتئذ ، فراقها مطلعه ...

يا اللى انت بطال وانا طيب وراضى بك
مش تحمد الله اللى انا طيب وراضى بك

وسألها عادل :

ــ لماذا تودين أن تحفظى هذا « الموال » بالذات ؟ اننى نادم على اننى غنيته لك !

وشعرت بغلطتها .. ولكنها تداركت وقالت ضاحكة :

ــ تعرف ياعادل اننى لم أسىء الى احد قط ، ومع ذلك فمعظم الناس لا يزالون يسيئون الى ، ويحملوننى وزر خطيئة ارتكبتها امى ...

واقتنع عادل أو تظاهر بانه اقتنع ثم وقف يمليها « كلام » الموال ... فسقطت القرنفلة و لما انصرف نسيها فظلت كما تركها ...

***

وقفت عند حوض الزهور تستعرض كل تلك الذكريات ، وانقضت مدة طويلة ، وانتصف النهار وكانت شمس الصيف القاسية تسلط أشعتها على رأسها العارى ومع ذلك لم تشعر بوطأتها ولم تتنبه الا على صوت وقوف سيارة تقف أمام الحديقة وسمعت صوتا يقول :

ــ ما الذى جعلك يا ابنتى تقفين هكذا تحت هذه الشمس المحرقة ؟

والتفتت فوجدت سيارة ابراهيم باشا صادق وقد اطلت منها زوجته الجديدة التى كانت قد رأتها تمر من أمام منزلها عدة مرات ، أثناء ذهابها الى القاهرة أو عودتها منها ، فابتسمت وقالت لها ، وقد خيل اليها أنها تريد زيارتها :

ــ اهلا وسهلا . تفضلى يا « تيزه »

فابتسمت ابتسامة صفراء ، ثم اشارت بيدها وهى تقول :

ــ شكرا يا ابنتى ... أود أن اقول لك كلمتين على انفراد ..

وتقدمت ناهد من باب الحديقة ، فهبطت زوجة الباشا من

سيارتها واقتربت منها ، ثم وضعت يدها على كتفها وقالت فى صوت خافت ، وهى تتلفت خلفها خشية أن يسمع السائق شيئا من كلامها :

ـ اننى اعرف من تنتظرين الآن .. ثقى انك كابنتى ويجب ان أصارحك بما فيه مصلحتك ، ان خط المرج كله يعرف أن عادل يحضر كل ليلة ليلقاك .. هنا !!

وارتجف جسد ناهد ، وتصبب العرق البارد من جبينها وارادت أن تتكلم ولكن زوجة صادق باشا لم تمكنها من الكلام ، فتابعت حديثها قائلة :

ـ انها نصيحة لك يا ابنتى .. انت ما زلت شابة ، وحرام ان يعبث عادل بمستقبلك .. انه لم يدع فتاة واحدة من صديقات اخته درية الا قال لها :

ـ أنت زوجتى ! ..

وتركتها ثم صعدت الى السيارة وابتعدت بها

ومادت الارض تحت قدميها ! ...

***

وخيل الى ناهد بعد ان استجمعت قواها أن زوجة ابراهيم باشا صادق كانت تريد أن تصارحها بشىء آخر ، كانت تريد أن تقول لها : أن والد عادل لا يوافق على زواج ابنه منها ... ولكنها خجلت وحصرت كل اتهامها فى عادل

وظل اثر هذا الحديث مطبوعا فى خيالها بضعة ايام ... ولكنها عادت الى قراءة رسالته ...

« أنت زوجتى أمام الله وأمام ضميرى »

وقد اتم تعليمه واصبح قادرا على أن يعول نفسه ويعولها ويعول ... ويعول طفلها ... فماذا نضه ها له لـ د ض.ه الده

عن زواجهما

وانتظرت عادل لكي تهنئه بنجاحه وتخبره بما صارحتها به زوجة ابيه ... ولكن ...

انقضت ليلة .. وليلتان .. وعشر ليال دون أن يحضر !

وفى كل ليلة كانت تنزل فى موعدهما الى مكانهما المعهود من حديقة المنزل وعبثا تنتظر قدومه وحدها ساعات طويلة ! ...

واخيراعندما اشتد بها اليأس ، اعتزمت ان تذهب اليه فى منزل خالته بشبرا

وانتهزت فرصة خروج ابيها الى عين شمس ليشرف على جياده فأسرعت الى شبرا ، وانتظرت فى عربة استأجرتها ، ثم ارسلت كلمة صغيرة كتبتها الى عادل ...

وبعد قليل اقبل عادل وقد بدا وجهه متجهما ، كأنها ارتكبت اثما بالذهاب اليه . ولم يكد يراها حتى ابتدرها قائلا :

ــ ما الذى اتى بك ؟

فارتبكت ، ولكنها أجابته متلعثمة :

ــ الا تدرى ما الذى أتى بى يا عادل ؟

ــ لا أدرى !

ــ انت ... الم تعدنى بأن تتزوج منى عقب حصولك على الدبلوم ؟

ــ عجبا ! وماذا حدث ؟ .. اكفرت اذا كنت قد وعدتك ثم تبينت اننى عاجز عن الوفاء بذلك الوعد ؟ ..

وشهقت شهقة طويلة حادة ثم قالت :

ــ عاجز !

ــ اجل . ان ابى مصمم على الا يساعدنى فى الالتحاق بأى عمل اذا تزوجت منك .. انك تعرفين جيدا فكرته عنك ...

فقد بلغك انه قال لدرية اختي : « اذا رايت هذه الفتاة فى بيتى لكسرت راسها وراسك ... »

ودققت ناهد النظر اليه كأنها تنكر انها امام عادل ... زوجها أمام الله وأمام ضميره ... ثم تمتمت :

ـ وانت .. الم تكن تعرف هذا كله عندما كتبت الى رسالتك ؟

فأرسل ضحكة قصيرة جافة وقال لها وهو يحرك يديه :

ـ رسالتى ! ... ما قيمة هذه الرسالة ؟ . . ارفعى قضية اذا شئت

وارادت ان تتكلم ولكن الدموع خنقت الكلمات فى حلقها ، فأشارت الى السائق ان ينصرف ، ولكن عادل امره بأن يقف .. ثم قال فى لهجة اقل قسوة :

ـ لقد اضطررت ان اقسو عليك فى الحديث ، لانك تعمدت الاشارة الى الرسالة التى وعدتك فيها بالزواج ، كأنك تهددينني . اننى آسف يا « ناهد » اذ كنت قد آلمتك . . لعلنا نستطيع التفاهم فى فرصة اخرى ..

فهزت رأسها ثم أشارت الى السائق ان يعود بها من حيث اتى ...

***

وعادت ناهد الى سحاعات الوحدة المملة المضنية فى منزل المرج .. وضاق العالم فى وجهها .. وتعاظم شعورها بهول الاثم الذى اقترفته .. الاثم الذى اشتركت فيه اشجار النخيل القائمة على جانبى ذلك الطريق الخلوى الطويل ، الذى يشرف عليه منزل ابيها ، ذات ليلة حالكة الظلمة من ليالى الربيع

وتبينت حقا انها فتاة لا تستحق ثقة أبيها ولا رحمته .. ولم تقو على ان ترفع بصرها الى صورته . . صورة ذلك الرجل

الذى تحمل صدمة المأساة التى نكبته بها امها فى صبر كريم ، لانها بقيت له ، ولكنها هى الاخرى غدرت به ! .

وتوالت الايام

ولاحظ ابوها انها دائمة الاطراق . دائمة الشرود .. وسألها مرارا :

ـ مالك يانانا ؟ . هل تريدين شيئا يا ابنتى ؟

ولكنها فى كل مرة كانت تتكلف الابتسام وتجيب :

ـ ابدا يابى .. اننى اريدك سعيدا ..

ثم تغلق بابها لتسترسل فى نوبة بكاء حادة

اجل ! ان اقصى ما كانت تتمناه ان تموت ، حتى يعيش ذلك الرجل سعيدا .. كان يخطر لها احيانا ان تلقى بنفسها تحت قدميه ، وان تتوسل اليه ان يركلها حتى يدمى جسدها ويفقأ عينيها . ولكنها كانت تتبين ان ذلك العقاب الهين اليسير لا يساوى بشاعة الجرم الذى اقترفته .. !

واخيرا اكتمل اقتناعها بانه لم يعد من حقها ان تعيش فى بيت ابيها ، بعد ان خانته تلك الخيانة التى تفيض نذالة وخسة ..

واختمرت فكرة الانتحار فى راسها

ولكنها رات ـ حرصا على ان تبتعد بالفضيحة الجديدة عن المرج ـ ان توافق اباها على قضاء بضعة ايام فى « عزبة » قويسنا .. وهناك .. فى الترعة الجارية وسط العزبة ، قارب اعتادت فى طفولتها ان تركبه مع احد الفلاحين لتجدف .. انها لا تجيد السباحة .. ومنسوب الماء المندفع اليها فى ذلك الشهر من العام مرتفع ، فاذا نزلت الى القارب وحدها وابتعدت عن « المصلى » الذى اعتاد الفلاحون ان يجتمعوا فيه .. ثم القت بنفسها الى الماء ،

فان احـدا لن يراها ولن يتمكن من انقاذها

ولكنها لم تشأ ان يتحسر ابوها على موتها ، بعـد ان يخيل اليه ان القدر يمعن فى التنكيل به .. فيجب ان يعرف انها لم تكن تستحق شيئا من ثقته وحبه

وجلست الى مكتبهـا تكتب اليه رسـالة تودعه فيها . . . وتصارحه بانها ستموت محاولة التكفير عن خطيئـة ليس للفتاة الشريفة ان تقترفهـا ، وانها لم تجد الا ان تدفن عارها معها .. ثم وجته اخيرا الا يحزن من اجل فتاة مثلها ، باعته لكى تشترى وعد رجل قال لها « انها اصبحت زوجته امام الله وامام ضميره ، قبل ان تكون زوجته امام ابيها وامام الناس . ! » وكانت قـد قررت ان تضع تلك الرسـالة فى مظروف مع رسـالة عادل التى كانت قصاصة الصحيفة المحتوية على اسماء ناجحى قسم العمارة بكلية الهندسة لا تزال ملتصقة بهـا

وكانت تعتزم اذا عاد ابوها من الخارج ليصحبها بالسـيارة الى قويسنا ، ان تتظاهر بعد مغادرة المنزل بانهـا نسيت شيئا ، ثم تعود لكى تترك تلك الرسالة على مكتبـه ، حتى يراها عنـد عودته من قويسنا بعد موتها

ولكنها بعد ان انتهت من كتابتها وقبل ان تضعها فى المظروف ، التفتت فجأة فوجدت اباها واقفا خلفهـا . . ينظر الى سـطور رسالتها .. لقد عاد فجأة قبـل موعده . . وسـألها فى صوت متهدج تبينت فيه ، لاول مرة ، انه لم يعد يثق بها

ـ ما الذى تكتبينه ياناهد ؟

وقبـل ان تتمكن من اخفـاء الرسالة تناولها . وبدأ يقرأ .. ثم وقف فى وسط الغـرفة ينظر اليها بكل ما وسـعته روحه من احتقار واشمئزاز ، حتى خانته قواه ، فارتجفت شفتاه واختنق

صوته بالدموع وهو يقول :

ــ حتى انت ياناهد ! .. الله ينتقم منك ! . .

ثم سقط مغشيا عليه واخفت ناهد عينيهـا بذراعيها رعبـا وتثلجت شرايينها ، وقد تجمـدالدم فيهـا كأنها تسمع حـكم الاعدام عليها من اجل اشنع جرم يمكن ان ترتكبه مراة ! .

.. لقد قتلت اباها ، فانه لم يسترد وعيه منـذ حملته الى فراشـه

***

واستيقظ اهل المرج فى فجر ذات يوم من ايام خريف ذلك العام على صوت فتاة فى العشرين من عمرها ، تفتح نافذة منزلها لتنعى اباها فى صـوت متحشرج مذبوح وبكاء دائم .. بكاء يتيمة فقدت كل شىء . .

***

وعاشت ناهد بعد ذلك اعوام الوحـدة الحزينة ، بل عاشت اعوام الصـمت الرهيب لا ترى احدا ولا تتحـدث الى احد ، ولا تطيق حتى سماع صوت احد يتحـدث على مقربة منها . فهجرت منزل ابيهـا فى المرج ، بعـد ان قلبت ابسـطته على ظهورها واسدلت الستائر السود على نوافذه ، وتركت الحديقـة مرعى لكلاب الطريق الضالة ..

ثم رحلت الى عزبة قويسنا

وهناك وضعت ابنها « عزيز » وخيـل اليها اكثر من مرة ، ان التى استطاعت ان تقتل اباها ، تستطيع ان تقتل ابنها .. ولكنها تبينت ان ذلك الطفـل البرىء لا ذنب له ..

وتعلقت بأمل واحد ، هو ان يأتى يوم يعتـرف فيه عادل بابنه . . ووقفت حيـاتها كلها لتحقيق ذلك الامل ..

وذات يوم .. بعد ولادة عزيزببضعة اسـابيع ، رأت سيارة تقف بباب منزل « العزبة » ، ثم لمحت شبحا يهبط منها لم تلبث ان تبينتـه . . كان عادل . . وكانت اذ ذاك جالسة فى الشرفة المطلة على رحبة المنزل .. فرآها .. وتقدم اليها ، وقد اشـتد خفقان قلبها عندما اقترب منهاووقف ينظر اليها ، وخطر لها ان تستدعى احد خدم المنزل ليطرده.. ولكنهـا لم تقو على ذلك ، وتكلم عادل .. فقال لهـا فى صوت مضطرب :

ـ لم اعرف نبأ وفاة المرحوم الا من الصحف .. وربما لا تعلمين اننى نقلت من القاهرة الى احد تفاتيش المبانى بالوجه القبلى .. البقية فى حياتك يا « نانا »

فهزت رأسها دون ان تجيب .. وعاد عادل يتكلم :

ـ اعرف انك لا تطيقين رؤيتى ولا سماع صوتى ، ولكنى مع ذلك اقسـم لك .. اننى .. احبك ولا ازال احبك

فضحكت ضـحكة مكتومة كضحكات المجانين وقالت :

ـ تقسم لى .. بماذا ؟

ـ بشرفى . .

فعادت ترسل ضحكة عالية ثم قالت :

ـ من أين لك هذا الشرف !

فارتبك ثم قال :

ـ اذن بشرفك أنت !

ـ وهل أبقيت على شرفى ؟ !

واستجمعت قواها ثم نهضت واقفة وصرخت فى وجهه :

ـ أخرج ! ... اخرج !

وهرول عادل الى سيارته ، ولما ابتعـد سقطت ناهد على المقـعد الذى كانت جالسة عليه وأجهشت بالبكاء

***

وانقضت شهور أخرى ٠٠وظلت أخبار عادل وأهل المرج منقطعة عنها ، وبدات تفكر فى ان تعيش من اجل طفلها ، واصبحت لاتتصل بالعالم الا عن طريق قراءة الصحف والمجلات

وذات يوم قرأت فى احدى تلك المجلات خبرا عن زواج عادل بفتاة كانت تزاملها فى المدرسة ، وهى ابنة أحد تجار الغورية الاثرياء ، من أصدقاء أبيه ابراهيم باشا صادق ٠ وكانت تعرف أن منزل ابيها مجاور لمنزل خالة عادل فى شبرا وان درية استعاضت بصداقتها عن صداقة ناهد ، بعد أن حرم أبوها عليها أن تزورها ٠

ومضى على ذلك عام علمت ناهد بعده أن عادل رزق بطفل ٠

وانقضت أعوام أخرى ولم يتغير شىء فى حياتها فقد ظلت مقيمة فى «عزبة» قويسنا منعزلة عن العالم ٠٠ تقطع الوقت فى القراءة فاذا تعبت عيناها تركتها لتسير مسافة طويلة بين الحقول ، او تركب القارب لتجذف وحدها ،وقد أخذت تستعرض ذكرى الليلة التى اعتزمت فيها ان تنتحر بالقاء نفسها من ذلك القارب ٠٠ وكان عذاب تلك الذكرى يطربها فكانت تكرر هذه النزهة الحزينة بضع مرات كل أسبوع ٠

وبلغ عزيز السادسة من عمره ٠٠ وشعرت بواجبها نحو تعليمه تعليما مدرسيا منظما ٠ وكان قد اتصل بها أن ابراهيم باشا صادق ، والد عادل ، قد توفى وأن زوجته التى كان قد كتب لها منزله الكبير بالمرج ، قد باعت ذلك المنزل الى أحد الاجانب وغادرت الضاحية نهائيا ، فعادت الى منزل أبيها بالمرج ٠ وأدخلت عزيز احدى مدارس مصر الجديدة

***

وحدثت المأساة ..

حدثت المأساة اذ اجتمع الاخوان فى مدرسة واحدة ٠٠ ابنها عزيز وابن الاخرى

وأقبل عزيز ظهر ذات يوم قبل موعد الخروج من المدرسة، وقد أصيب بجروح في رأسه ، وسال الدم فلوث سترته البيضاء التي كانت قد حاكتها له

وسألته أمه، فعلمت انه تشاجر مع أخيه منصف، لان الاخير سبه أمام زملائهما ، اذ اتهمه بأنه تربية امرأة ! • فلم يستطع الا أن يدفع تلك الاهانة بالضرب ، واقبل الضابط فطرده من المدرسة وأرادت ناهد ان تصارح ولدها بالحقيقة كلها ، ولكنها احجمت ، فقد كان الطفل المسكين معتقدا أن أباه قد توفي عقب ولادته

ولشد مادهشت عندما تلقت في اليوم التالي خطابا من الناظر بفصل ابنها أسبوعا ، وبينما هي تفكر في الذهاب لمقابلة الناظر سمعت صوت وقوف سيارة ، ورأت من نافذة غرفتها عادل يهبط منها وخلفه طفل لم يخامرها الشك في أنه ابنه منصف

وتقدم عادل الى الدرج فصعد عليه كأنه في منزله •• ثم فتح باب غرفتها واتجه •• الى فراش ابنها عزيز

كانت اذ ذاك واقفة تضع قطعة من القطن المبلل بصبغة اليود على الجزء المجروح من جبينه ، فلم يكد عادل يرى ذلك المنظر ، حتى التفت الى ابنه الصغير وصفعه صفعة قوية على وجهه ، ثم دفعه نحو عزيز وهو يصيح :

— قبل رأس أخيك الكبير !

وتقدم الطفل فقبل رأس أخيه ثم خرج الأخوان بعد أن تصافحا الى الحديقة

وصارحها عادل بكل شيء •• صارحها بأن ناظر المدرسة استدعاه ليخبره بحادث المشاجرة التي وقعت بين ابنه وابنها ! وبأنه بدأ بفصل ابنها من المدرسة أسبوعا ، ولكنه اعتزم أن يفصله نهائيا ، فقد اتصل به أنه ينتسب الى أسرة لا تليق أن ترسل ابناءها

الى مدرسته ، وأتم عـادل كلامه قائلا :

ـ لقدصارحته بكل شيء ياناهد . صارحته بأن عزيز ابنى ، كما أن منصف ابنى ، ولقـد أقبلت الآن لاخبرك بأننى سأصـارح الناس اجمعين بهذه الحقيقة . . اننى ذاهب مع محام شرعى الى المحكمة لاعترف ببنوة عزيز لى

واغرورقت عيناها بالدموع . لقد كانت تكرهه، وكانت مصممة على أن ترفض اية يد يسديها اليها ولكنهـا لم تستـطع أن ترفض ماعرضه عليها من أجل عزيز

وعـاد عادل بعـد أيام يعرض عليهـا شيئـا أخر ... أن يتم زواجها بعقد ، ويؤكد لها أنه قبل الزواج من زوجته مكرها ارضاء لابيه ، وأنه على استعداد لتطليقها ولكنها ابت . لقد اجرمت امها فى حق أبيها ، وأجرم عادل فى حقها ، فلم تجرم هى فى حق امراة لم تسىء اليها قط ؟

ان العالم الآن يعرف أبا عزيز . . هذا كل عزائها . اما هى فانها تعيش عيشة النسك والزهد فى المنزل الذى ورثته عن أبيهـا فى المـرج ، وعادل يحضر بين وقت وآخر لرؤية ابنه ، ولكنها لاتلقاه الا نادرا ، لانها تشعر بغضاضة من أن الظروف أرغمتها على أن تسمح له بالعودة الى المكان الذى شـهد غرامها القديم ... !

***

كانت ناهد تسير منذ بضعة أيام فى حديقـة المنزل فرأت على احدى قوائم السور الخشبـية ، الموال القديم الذى انشده لها عادل ذات يوم ، ثم أملاها كلمـاته ، فحفرتها بدبوس على طلاء الخشب

.. يالى انت بطال وانا طيـب وراضى بـك

مش تحـمد الله الـلى أنا طيب وراضى بـك

انها تبكى ولاتزال تبكى ... وسـوف تدفع ثمن ما اقترفتـه بكاء داميا حتى الموت .



وحى رخيص !

ليس لهذه القصة عقدة . ولا تتوافر فيها عناصر القصة الفنية . وانما هى حادثة غرام واقعيــة بين اثنين . يعرفهما الناس ويراهما المصطافون فى الاسكندرية هذا العام ولا يدرى أحـــد ما دار بينهما

لم يكن منير يوم عرفته « عديلة » جديرا يحب امراة حبا يجتاح حياتها . فقد كان اذ ذاك شابا يتقدم الى الثلاثين . يحب عمله الى حد الجنون ، ويفضـــله على اجمــل امراة فى الوجود . وكان هذا العمــل بطبيعتـــه يجـــذب اليه انظـــار الناس . فلم تكن تنقضى فترة حتى يظهر منير بكتاب جديد يتضمن طائفة من شعره. يصور به آلام القـــلوب ، وشـــقاء الارواح. وكان بدء علاقته بعديلة شـــاعريا هو الآخر ، فقد تحدثت اليه ذات مساء عقب صدور كتابله وصارحته برأيها فيه .. كان الكتاب يصف حياة زوجة شقية . وكانت عديلة قد تزوجت قبل ذلك بعشرة أعوام من مهندس شاب ورزقت منه بطفل . ولكنها لم تذق خلال الاعوام العشرة طعما للسعادة قالت له :

ـ لقد شعرت عندما انتهيت من قراءة ما كتبت انك تعرف دقائق حياتى . هل روى لك أحد شيئا عنى ؟

ـ كلا .. اننى لم اسمع باسمك الا الآن .

ـ ولكنك رأيتنى ذات يوم

ـ أين ؟

ـ فى مصعد العمارة التى أسكنها . بضع ثوان قضيناها معا فى ذلك المصعد ، ومع ذلك أحسست عندما دخلت الى بيتى

بعد ذلك انك عرفت كل شيءعني .. لم تكثر من ذكر اللون الازرق فى قصصك ؟ انك تعرف ولا شك انني أحب هذا اللون . وانني اخترته لطلاء غرفتي

وراق للشاعر الشاب يومئذ ان يجاري محدثته في ذلك الاتجاه فقال :

ـ انك تحدثينني تليفونيا اليوم المرة الاولى. ولكنني أحس اننا تعارفنا منذ زمن طويل . . هل استطيع أن اراك

ـ لماذا ؟

ـ لست أدري .. ولكنني فجأة تبينت انني مسئول عن بعض شقائك

ـ ماذا فعلت لكي تشقيني ؟

ـ لم افعل شيئا لكي اسعدك

ـ اتستطيع ؟

ـ أعتقد

***

واتفقا على اللقاء في اليوم التالي . . . واعتزم منير ان يضفي على اللقاء الاول لونا عاطفيا خياليا .. لم يخطر له ذلك اعتباطا . بل فكر فيه وقرره لتحقيق غرض معين .. لقد فهم من عديلة انها تزوجت زواجا مبكرا . وانها عاشت عشرة أعوام سجينة حياة زوجية راكدة ، مملة متشابهة ، لا ينيرها حب زوج ، ولا تلهبها متعة صحيحة. فراى انينقلها من تلك الحياة الى النقيض . وكان له صديق عجوز ، هو ضابط كندي متقاعد ، أقام منزلا على هضبة مرتفعة خلف «مينا هاوس» وسط الصحراءبعيدا عن الناس . فاتصل به واخبره بانه قادم لزيارته مساء ذلك اليوم وذهب للقياها عند

محطة المترو امام كوبرى الليمون كما اتفقا . وقد خجل أن يسأ
لها عن لون الثوب الذى سترتديه، لانه سبق ان قال لها انهما تعا
رفا منذ زمن طويل ! فلماهبطت من المترو اتجهت مسرعة الى
سيارته . لم يرقه فى أول الامر جمال وجهها ، ولكنه اعتزم ان
يستمر فى « مناورته » حتى النهاية . وقاد سيارته الى طر
يق الهرم فسألته :

ــ الى أين ؟
ــ لا أدرى
ــ كيف ؟
ــ أريد ان اهرب بك من النا س .

وظلت السيارة سائرة .. وطال سيرها . فعادت تسأله :

ــ لقد ابتعدنا كثيرا
ــ لا تخافى .. الم أقل لك اننى مسئول عنك !
ــ واذا تعطلت السيارة ؟
ــ سنجد طعاما . وماء . انت تطهين الطعــام وانا احضر لك المــاء
ــ وبيتى ؟

فقطب جبينه وتمتم هامسا :

ــ لا تذكرينى بأن هناك من له حقوق عليك غيرى

***

وقضيا مساء ذلك اليوم فى ذلك البيت الصحراوى العجيب .. ولما غربت الشمس سارا جنبا الى جنب وسط الصحراء وقد تأبط ذراعها. وبعد صمت طويل قال لها :

ــ اننى شرير !
ــ لماذا ؟

ـ لانني تمنيت الآن أن تمرضى فأعنى بك هنا .. وحدى
ـ هل حضرت مع امرأة اخرى الى هذا المكان ؟
ـ أبدا
ـ ولن تحضر مع أخرى ؟
ـ أعدك

ولما عاد منير الى منزله ليلتئذ كان ضميره متعبا . فقد كذب على عديلة عدة مرات .. فلم يكن معقولا ان يحس انه عرفها قبل ان يراها بزمن طويل .. ولم يتمن قط ان يهجر العالم من أجلها . وليس صحيحا انه لم يدع غيرها الى ذلك المكان

***

وانقضى عامان آخران .. لم يتقابلا فيهما . وان كررت عديله اثناءهما السؤال عنه فى كل مناسبة .. كانت تشعر بأنه لايمكن ان يكون لها وحدها ، وظروفها ـ كزوجة وأم ـ لا تمكنها من ان تراه الا بصعوبة شديدة . ولذلك فضلت أن تتحدث اليه وان تطمئن عليه ، وان تغالب العاطفة التى بدأت تتسيطر عليها

أما منير فكان الكفاح نحو المجد يجرفه جرفا بعيدا عن كل شىء .. كان يلهو كما يلهو كل شاب عزب فى الثلاثين من عمره ...

وتحدثت اليه عديله ذات يوم ، فعلم انها تستطيع ان تحضر لرؤيته .. وعندئذ فكر فى المكان الذى سيذهبان اليه معا . وعاد يفكر فى اتمام « المناورة » التى بدأها قبل ذلك . فحملها الى مقهى ريفى يقع فى طريق المرج . مقهى هادىء يحيطه سور أخضر مرتفع . وتختفى مقاعده تحت الكروم المتدلية . وتنطلق فى فنائه جماعات من الدجاج ، يعنى صاحب المقهى بتربيتها
ـ لماذا أحضرتنى الى هذا المكان ؟

ـ اننى أعلم انك سعيدة بالمجىء اليه
ـ اجل ولكن ..
ـ ولكن لماذا تريدين الهروب من هذه السعادة ؟
ـ لا تغضب يا منير . اننى زوجة وأخشى ان أزل ..

وعاد ضمير الشاعر يثقل عليه .. أطال التفكير ثم رفع بصره الى عينى عديلة . كانتا تومضان ببريق مخيف .. كان يبدو فى نظراتهما اثر الاجهاد العنيف والمقاومة الطويلة العنيدة .. وكانت شفتاها الغليظتان ترتعشان رعشات خفيفة . رعشات امراة تجاوزت الثلاثين ولم تذق بعد طعم الحب .. لقد كاد منير يسمع صراخا يدوى فى جوف تلك المراة ، ثم لم يكد يصل الى تلك الشفتين حتى اكتم

ومدت ذراعيها فعانقته

ولما قبلها شعر بانها تريد بتلك القبلة ان تقتل كلمات كادت تتفوه بها على الرغم منها

***

ثم انقضى عامان آخران .. لم يتقابل فيهما الاثنان. ولكن عديلة كانت تعرف اخبار منير مماينشرعنه، وماكانت تسمعه. كان لايزال يتابع حياة العبث التى لا زمام لها .. وكان يرى ان تعدد مغامراته هو الغذاء الوحيد لوحيه ..

وكاد منير ينسى عديلة ، بين كأس معهذه، ونزهة فى السيارة مع تلك ، ورقصة مع ثالثة . الى ان فوجىء ذات يوم بخبر طلاقها ، فأسرع للمرة الاولى ــ منذ عرفها ــ يطلبها ويتقدم بواجب المواساة

وتجددت العلاقة بين الاثنين . وأتاحت الحرية الطارئة لعديلة ان تكثر من مقابلته . وقضيا ساعات من الحب العنيف فى

منزل هادىء اشتراه منير فى طريق حلوان .. وتبين الشاعر الشاب انه لم يكن يلهو مع تلك المراة وانما كان يحب .. لقد أصبحت جزءا من كيانه لا يستطيع التخلى عنه .. كان يسخر فيما مضى من الحياة المستقرة الى جانب امراة واحدة، ولكنه الآن أصبح يشمئز من التنقل الذى يلوث روحه وشعره. كوب من الماء « المعين » تحضره عديلة بنفسها من « طلمبة » الحديقة ، أشهى من اى شراب فى افخم فنادق القاهرة .. دقائق يقضيها ملقيا راسه على صدرها ، تمسح عناء عمل دام النهار كله .. قبلة تطبعها على فمه ، تبعث فيه الاعتزاز بالنفس والثقة فى المستقبل

ولكن عديلة — التى كانت تعدو مسرعة الى الاربعين — تبينت شيئا آخر .. انها أحبت ذلك الشاعر منذ ستة أعوام ، لانه احاطها بذلك اللون الساحر من الحياة العاطفية المتجردة من ماديات الناس ، البعيدة عن ضجة العالم .. كان ابنها طفلا صغيرا .. وكانت هى زوجة لرجل .. رجل فى المنزل .. اما الآن فقد كبر الطفل ونما جسمه ، وتكرر الهمس بين الاقارب عن عروسه المنشودة .. كما ان حياتها خلت من رجل يملأ فراغ المنزل .. وهذا الفراغ لا يليق ان تملأه برجل بعد ان يتزوج طفلها ..

وبدأ سباق رهيب .. لقد أحست عديلة انها يجب ان تسرع بالزواج قبل ابنها ..

وأحس منير ان شيئا قد تغير .. وان ستارا يفصل بينه وبين عديلة .. وراق له ذات يوم ، وهما يقضيان اشهر الصيف فى الاسكندرية ، ان يطيل النظر الى عينيها فسألته :

— ما الذى يلفت نظرك فى عينى ؟ فمر بأصابعه فى رفق

على جبينها ثم قبلها

وعادت مرة أخرى تسأله ، بعد ان لامها لانها لم تحضر فى موعد حدداه من قبل :

ـ أتريدنى الى جانبك نهارا وليلا ؟

ـ اجل

ـ خذنى اذن

كان يشعر فى اعماق روحه بأنها له وحـده وبأنه لن يكون لغيرها .. اما هى .. اما الأم التى ترى ابنهـا شابا فى سن الزواج .. فقد كانت تصارع الزمن صراعا جبـارا .. كانت ترتعد من فكرة الزواج بعد ان يفوت الوقت وتصبح حمـاة وجدة .. كانت تتوقع منه أن ينهـض مسرعا وان يحضر «المأذون» وان ينتهى كل شيء فى دقائق .. فلماذا لم يفعل .. لم يفعل لانه كان مطمئنا الى المستقبل الباسم

اماهى فقد تحول حبها القديم الى شيء آخر . الى رغبة فى الثأر .. الثأر من كل شيء حتى من نفسهـا .. وملأت خيالهـا فكرة حاسمة .. أن الحياة وهى مقبلة على الاربعين ليست ساعات تقضيها فى المنزل النائى وسط الصحراء خلف «مينا هاوس» فتستمع الى غناء البدو .. وتشاهد الدجاج. ولا فى منزل منير بطريق حلوان تخرج المـاء من « طلمبة » الحديقة .. انها شيء آخر

***

وانقطعت عديلة .. وتكرر اعتـذارها بأسـباب عديدة لم يشك منير فى صحتها . كان لايزال يحبها ويؤمن بأنها أطهر امرأة عرفها .. الم تف له ستة أعوام طويلة ؟.. الم تحضر له طائعة كلما طلبها ؟

وبدأ منير يكتب قصة غرامه بعديلة ... الغرام الذى بدا بحديث تليفونى فى صيف عام . . . وكان فيما سبق يكتب شعرا عن الحب دون ان يحب. اما هذه المرة فقد خيل اليه فى اول الامر انه يلهو ويخدع ويعيش فى مغامرة طائشة ثم تبين له انه عاشق ، وان عديلة وحيه الصحيح الاول . فأطلق على قصته الجديدة اسم « وحى » ..

وتعب من الكتابة ذات مساء فغادر المسكن الذى كان يقضى فيه اجازة الصيف بالاسكندرية، ليكون على مقربة من عديلة.. وسار على قدميه الى ستانلى. . كان الظلام حالكا .. حتى الانوار الخافتة التى كانت تومض من بعيد فى قوارب الصيد المتأرجحة على قمم الامواج قد اختفت .. كان يفكر فى عديلة .. وفجأة مزق السكون صوت سيارة مرت مسرعة من طريق «الكورنيش» الى جانبه ودخلت الى احدى الطرقات الصاعدة من ذلك الطريق . وارتفعت ضحكة امرأة . انها هى .. هى نفسها عديلة .. هبطت من السيارة تتأبط ذراع شاب وتقدمت معه الى احد الفنادق العديدة المطلة على البحر فى ستانلى

وعلم فى اليوم التالى ان عديلة قد ارهفت السمع أثناء غيبته ، الى كل من يعد بالزواج ... الزواج السريع ،. قبل ان تتزايد الشعرات البيض . وتتجمع التجعدات تحت العينين. وقبل ان تتكاثر مغامرات ابنها مع فتيات « البلاج » . فتكرر خروجها . وكانت كلما تبينت بطء الوفاء بالوعد ، هجرت وعمدت الى محاولة أخرى ..

وعاد منير يتصفح قصته . . انها لم تعد تصلح للنشر فقد بداها برسم لشخصية عديلة رفعها فيه الى مرتبة القديسات .. فلما هوت امامه الى ذلك الحضيض اكتفى بأن اضاف كلمة أخرى، الى عنوانها واغلق عليها درج مكتبه ..


إقرأ
آخر لحظة
يوم الجمعة
من كل أسبوع



امرأة ذات صيف

كان القطار القادم من باريس يتهادى فى طريقــه بين مارسيليا و « كان » مســاء ذات يوم من ايام شهر اغسطس المــاضى . وكان « هو » قد جلس فى احدى غرف ذلك القطــار يقتل الوقت بقراءة صحيفة مصرية اخرجهــامن حقيبته . ولكنه لم يســتطع ان يغالب الرغبــة فى التطلع بين لحظة واخرى الى وجه الفتاة التى كانت تجلس فى المقعــد المواجه له . لم يجد كبير عناء فى ان يتبين انها باريسية . اقبلت لتقضي اجازة الصيف على الشاطىء اللازوردى .. كان عطر « امراة » الذى فتن به نســــاء باريس يضفى على الغرفة جوا من الشعر والحنان . وكان السوار الفضى الضخم الذى ذكره بقيود المسجونين فى مصر ، يزين معصمها ويوحى اليه كلما اختلس نظرة اليها بسؤال واحد: « لمن اعد هذا القيد ؟ لها او له ؟ ومن هو ؟ » ان فى حياة كل امراة باريســية رجلا . وقــد احس صاحبنا ان الرجل فى حياة رفيقة القطار قــد اكتسحها فى عاصفة هوجــاء . فانها كانت شــاردة الفــكر .. كانت تمــد اصابعها المتشنجة الى القيد الفضى الذى التف حول معصمها ، بين فترة واخرى كانهــا تطمئن الى انهــا لا تزال فى الاسر !

***

واقترب القطار من محطة « كان » واحست رفيقــة القطار انها يجب ان تغــادره فنهضت متثاقلة واخذت تعد حقائبها . ووجدها « هو » فرصة سانحة فاقترب منها ليعينها على اعداد الحقائب وجمع شجاعته ثم سألها :

ـــ هل أستطيع ان أفتح النافذة لكى اعطى هــــذه الحقائب للحمال ؟

ــ أجل . شكرا . . ثم نظرت الى وجهـــه برهة واستمرت تسـأله : اتعرف « كان » من قبل ؟

ــ لا . انها زيارتى الاولى لها

ــ اذن . فسوف تحبها كثيرا

ــ وانت ؟

ــ أوه . اننى اعرفها كما اعرف الحى الذى اقطنـــه . ما هو الفندق الذى ستنزل به ؟

ــ « المارتينيز »

ــ انه نفس الفنـــدق الذى حجزت به غرفة مدة اقامتى هنا وتنهدت ثم أشاحت بوجههاتحـاول أن تخفى ألمـا دفينا .

***

وكان القطار قد توقف تماما عنالسير . فاستدعى « هو » حمالا سلمه حقـائب رفيقة القطـار ،وآخر عهد اليه بحقائبه ، وغادرا محطة « كان » سويا . ثم استقلااحدى سـيارات الاجرة انطلقت بهما الى «الكروازيت» وهو الطريق الكبير المطل على شاطىءالبحر الابيض المتوسط ، والذى تقـع فيه اكبر فنادق هـــذا الثغر الفرنسى الرشيق . خطر له اكثرمن مرةانيسألها عناسمها ولكنه احترم ألمها فلم يفعل . ووقفتالسيارة امام باب « المارتينيز » ونزلا منها ثم اتجهـا الى الموظفالمكلف باستقبال النزلاء . فتركها تتقدمه ووقف خلفها ينتظر . . وسمعها تقول :

ــ اننى الآنســـة ايفون . . لقد حجـزتمن باريس الغرفة رقم ٢٠٥

وفتح الموظف دفتره . وبعد ان القى نظرة عليه أجابها :

ــ اجل . لثلاثة اسابيع

وتقدم « هو » فلاحظ انها لم تبتعـد عن المنصة الخاصـــة باستقبال النزلاء ولم تتبع الحمال الذى كلف نقل حقائبهـا الى

الغرفة ، بل انتظرت حتى سمعت رفيق القطـــار يذكر اسمه . وعرفت انه حجز الغرفة رقـم ٤٤٤ ليوم واحد

ـ انك اجنبى ؟

ـ اجل . مصرى .

ـ ولم تغادر « كان » غدا ؟

ـ لاننى سأعود الى الاسكندرية بعد غد .

ـ وكيف يتسنى لك ان تتذوق جمال هـذا الثغر الجميل فى ليلة وبعض يوم ؟

ـ قلت لى انك قد سبقت لك زيارتها مرات عـديدة . اننى اعتمـد عليك فى إن نقضى الليلة متنقلين بين ملاهيها

ـ لم اكن اتوقع ان اغـادر الفندق الليلة مع رجل لا اعرف عنه شيئا ولم تكد تنقضى ساعتان على سماعى اسمه . اتعرف لم اقدمت على هذه المغامرة ؟

ـ اتعرفين انت لم الححت فى ان ادعوك للخـروج الليلة معى برغم التعب الذى يحس به كلانا ؟

ـ لست أدرى

ـ لاننى شعرت بثقل الهموم التى تحملينها منذ غادر القطار باريس ، فخيـــل الى انك لو افضيت لى ببعضــها لفرجت عن نفسك .

***

دار هذا الحديث بينهما تحت شجرة من اشجار حديقة ملهى « تريانون » بينما كانت جمـوع الراقصين والراقصـات تدور فى الحلقة الضيقة على انغام قطعـة موسيقية هادئة من قطع التانجو، واستمرت ايفون تقول وهى تكاد تلهث :

ـ ولقد اخترتك انت بالذات لاننى علمت انك راحل غدا .

اننى لا ود ان افضى بسر المى الىشخص يحتمل ان القاه فى «كان» او فى باريس لاننىاحاول ان انسىهذا الالم ، او اتناساه . أن لألمى قصــة طويلة سأروى لك طرفامنها الليلة .

واخذت ايفون تروى قصتها . . انها فتاة من اسرة باريسية طيبة . احبت رجلا حتى العبادةوبادلها الحب . وعاشا معا نحو سبعة اعوام . كان لا يمــكن انيذهب الى عمله قبل ان يراها . وكانت لا ترى خارج منزلهــا الامتأبطة ذراعه . ولا تتــــذوق للرقص معنى الا اذا ضــمها الىصــدره . ولا تحس للقراءة لذة الا اذا اختــــار لها الــكتاب ،ولا تحب ان تشــــاهد فيلما او مسرحية الا اذا كان الى جانبها . وكانت تأمل ــ ككل امراة ــ فى ان تحملاسمه . وظل هذا الامليعزيها تلك الاعوام الســبعة عن كل صدمة صادفتها . فقد تقدمإليها اكثر من شاب يطلب يدها ولم تجــد اسرتها فيه ما يبررالاعتذار عن قبوله ، ولكن ايفون كانت ترفض . لانها كانت تتصوران عــذاب الجحيم اهون من ان تعطى نفسها الى رجل غيره . الىان صارحها ذات يوم بأن الفارق الدينى الذى كان يفصله عنهــاوالذى عاق زواجه منها ، لم يعد فى مقدوره ان يتغلب عليه . وانهاعتزم ان يقبل منصبا فى السلك السياسى الفرنسى بالشرقالاقصى لكىيقضى حياتهبعيدا عنباريس وعنالحى الذىشهد غرامهماسبعةاعوام . وتبينت ايفــون انه لم يخــدعها ، وانه حاول بكل ما فىطاقته ان يمهد لادخالها فى اسرته ــ وهى اسرة محافظة من بريتانى ــ فعجز . واحس انه لو تحدى تلك الاسرة لعاشت هى شــقيةبذلك الزواج .

وتلقت ايفون الصدمة صاغرة . . ولكنها حطمت كيانها

***

وانهمرت الدموع من عينيها الواسعتين . . ورأى هو ان ينتقلا

من ملهى « تريانون » وأن يغير مجرى الحديث . فقال لها :

ـ الم نتفق على ان تريني ملاهي « كان » كلها في ليلة واحدة !

وانتقلا الى ملهى « الباستيد » ولكنها عادت تتحدث عن غرامها الذبيح .. وثمل الاثنان . وتنقلا بين بضعة ملاه ومراقص حتى طلع الفجر فعاد الى الفندق . ولم يكن صبي المصعد موجودا فوضع « هو » اصبعه على الزرالذي يشير الى الطابق الرابع حيث الغرفة ٤٤٤ فلم تتكلم ،ولكن المصعد لم يكد يصل الى ذلك الطابق حتى فتحت البابومدت يدهاتصافحه وهي تقول :

ـ لقد اوصلتك الى هذا الطابق لاطمئن عليك .. الوداع ..

ـ لم لا نتناول طعام الافطار معا ؟

فابتسمت في سخرية وقالت :

ـ لا تحاول عبثا .. انني مازلت احبه .. الوداع .

ـ اكتبي الى على الاقل . سأكون قلقا بعد عودتي على مصيرك .. هذا هو عنواني !

فتناولت بطاقته ثم اغلقت الباب ، وهبط بها المصعد الى الطابق الثاني ..

وانتظر رسالة من ايفون فلم تكتب ..

***

وعاد « هو » الى مصر ، وبعد بضعة اسابيع دهش اذ تلقى مظروفا حولته اليه مجلة باريسيةيتضمن بضع رسائل من سيدات يجبن على اعلان نشر بتلك المجلة ، وقدتبين فيمابعد ان صديقا له اراد ان يمزح معه ، فنشر في تلك المجلة ان شابا اجنبيا يرغب في التراسل مع فتاة تهوى الادب والمسرح ، وكتب في الاعلان ان الرسائل توجه الى ادارة المجلةوذكر اسمه « هو » وطلب من ادارة تلك المجلة ان تحول الردودالى عنوانه بمصر .

وزادت دهشته عندما وجد رسالة من ايفون الى ذلك الرجل المجهول الذى نشر الاعلان تذكر فيها وصفا لشكلها ولون عينيها وشعرها ، وانها مستعدة لان تدفع «دوطة» قدرتها ، وارفقت بالرسالة صورتها وذيلتها بعنوانها : الغرفة رقم ٢٠٥ بفندق « مارتينيز » . وقد بعثت بردهادون ان تدرى انها تكتب الى الرجل الذى صحبته فجر ذات يوم الى باب غرفته ثم ابت ان تتناول معه طعام الافطار ! . .

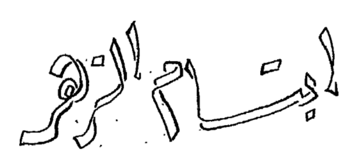
***

وانقضت بضعة اسابيع اخرى وتلقى رسالة من « كوبنهاجن » ذكرت فيها ايفون انها تزوجت مهندسا دانمركيا ، وانها غادرت باريس لتعيش معه فى وطنه .

وتبين « هو » ان ايفون كانت تتابع اعلانات الزواج التى اعتادت ان تنشرها الصحف الفرنسية ، وانها كانت تجيب على بعضها ، الى ان عثرت على ذلك المهندس الدانمركى الذى اغرته « الدوطة » فتفاهما وتزوجا . . .

لقد حطم العذاب اعصابها ، فلم تحاول قط بعد ان خاب غرامها ، ان تحب مرة اخرى . . ورات ان خير ما يعزيها هو ان « تشترى » رجلا ، اى رجل ، فاشترته ! . .





لم يسافر فى صيف هذا العام الى امريكا لينسى حبا قديما أو لينشد حبا جديدا . وانما سافر ليرى عالما قرأ عنه ألكثير . فشاقه ان يعيش فيه . وتعمد أن يطيل اقامته فى أكثر مدن امريكا صخبا واشدها عنفا . لأنه كان ـ قبل سفره ـ قد اعتاد الحيـــاة فى منزل خلوى اقامه فوق ربوة تطل من جهـــة على ترعة المريوطية ، ومن الجهة الاخرى على الصحراء الواســعة الممتدة غرب القــاهرة وقد شهد هذا المنزل آخر غرامه ، فلما خمدت جذوة هـــذا الغرام باعه . وخيل اليه أنه لم يعد يطيق تلك الليالى الشاعرية الهادئة التى يحلو فيـــها الهمس ، والتى تفصح العيون فى ظلمتهـــا عن أرق المعانى اذ تعجز الشفاه . . ولعل دافعا آخر حفزه الى هذه الهجرة القصـــيرة . فانه اختـــار لنفسه ، أو اختارت له الحياة فى مصر ان يكون شـــاعرا . فأحس آلام الناس وعبر عنها . وخيـــل الى الكثيرين انه قادر على أن يزيل تلك الآلام براى أو نصـــيحة او توجيه . وكان يزهو فى بدء حياته اذ يرى نفسه محلا لثقة أصدقاء وصديقات لا يعرف أسماءهم . يكتبـــون اليـــه ويبثونه ما يكوى ارواحهم من آلام ، ويسألونه رأيه . ولكنه تبين انه استطاع شـــفاء اولئك الاصدقاء والصديقات من آلامهم ، أو التخفيف عنهم بشعره الذي كان ينظمه من عصارة قلبه وينشره على النـــاس ، فلما تألم ذات ليلة وهو جالس فى حديقة ذلك المنزل ، لم يجد الى جانبـــه واحدا ممن أحس آلامهم فحنـــا عليهم ورفه عنهم . وخيل اليه ليلتئذ ، وهو يشاهد السيارات صاعدة الى الاسكندرية أو هابطة منهـــا الى القاهرة ، فى الطريق الصحراوى الذى يطل عليه بيته ، ان الكثير من تلك السيارات يحمل بعض أولئك الاصدقاء والصديقات

وقد شــــفيت أرواحهم فبداوايستمتعون بالحياة . وآمن بأنه لا يجب أن يطمــع فى ان يقفواحد منهم بباب بيته ليســأل عنه . لأن احــدا منهم لم يكنيعرف اين يقيم .. لقــد عاش معهم ــ فى ماضيهم ــ بشعرهعندما كانوا يتألمون . فلما زالت آلامهم اصبح الشعر والشاعر ذكرى يعملون على التخلص منها .

ولما صارحه أصدقاؤه عقبوصوله الى نيويورك بأن المرأة الامريكية لا تعرف الحب كمــاتعرفه المصريات ، اطمأنتروحه لأنه كان قد اعتزم هو الآخر انيتحرر من ماضيه .. من تلك الذكريات التى طاردته فى عنفوقسوة ، وخيل اليه عقباقامته فى ذلك الفندق الضخم الذىيطلعلى«الافينيو الخامس» ــ أوسع شوارع العالم واكثرها ضــجةواحشدها بالناسوالسيارات ــ خيل اليه ان نساء العالم الجديدلا يعرفن الحب لأنهن لا يعرفن الألم . وانهن اذا كن قد اعتدنان يتعاطين كؤوسالخمرمبكرات قبيل غروب الشــمس ، فانهنلا يذبن فى تلك الكؤوس آلامهن كما تفعل باقى نســاء العالم وانمايذبن الفائض من الدولارات التى تتخم حقائبهن ! كما خيل اليــهأن الضــحكات المرحة التى كانت تطلقها حناجرهن كلما أفرطن فىالشراب ، انما تعبر عن فرحهن بأنهن استطعن التخلص منكميةاخرى من تلك الــدولارات التى لا يعرفن أين ينفقنها !

***

وجلس ذات ليلة فى مقصفذلك الفندق وامامه كأس طال عليهــــا الامد دون أن تفرغ . ومر به الساقى الاسبانى الذى كان قد عرف انه مصرى ، فلمارآه وحده ســأله فى رقة :

ــ اين تعتزم قضاء عطلة آخرالاسبوع يا سيدى ؟

وفكر صاحبنا برهة ثم هزراسه واجاب :

ـ لا أدرى . لم لا اقضيهاهنا ؟

ـ فى نيويورك ؟ ستجدهاخالية تكاد تنعى من بناها . ألا تقضون هذه العطلة بعيدا عن المدن الكبرى فى مصر ؟.

وتذكر اذ ذاك منزله الخلوى القائم على الربوة العالية التى تشرف على الصحراء من جهة ، وعلى ترعة المريوطية من جهة أخرى ، وهز رأسه كأنه يطرد تلك الذكرى . ثم قال للساقى:

ـ كأسا أخرى أرجوك . . . وأجاب الاسبانى بالتعبير الامريكى المعتاد فى هذه المناسبة :

ـ اهلا وسهلا يا سيدى

ولحظ « هو » أن الساقى كان ينظر الى مائدة اخرى وارتفع صوت ناعم يقول :

ـ كأسين !

والتفت اذ ذاك فوجد سيدة تجلس وحدها الى مائدة مجاورة . . . شقراء فى الثلاثين . فارعة العود فاتنة القسمات . انيقة اناقة تبهر البصر . .

وأدنت ابتسامة خفيفة ما بين المائدتين من مسافة !

وكأسان أخريان . . تلاشت بعدهما تلك المسافة ، والتصق مقعدان ، ثم التصقت كأسان ضاع رنينهما وسط ضجة القوم الذين اجتمعوا ليلتئذ فى « غرفة البلوط » بذلك الفندق الكبير

وبدأ همس خافت :

ـ مصرى ؟

ـ أجل . وانت . امريكية ؟

ـ طبعا . الا ترانى أتحدث اليك امام هذا الجمع الذى يعرفنى معظمه ، دون أن اهاب ما يهابه غيرى ؟

ـ مم يهاب غيرك ؟

ــ من السـنة الناس . ان أهل نيويورك يعرفون اننى برغم مظـــاهر الثراء والترف التى تحيطنى ، اعيش حياة تعسة

ــ لماذا ؟

ــ لأننى لا احب زوجى ..انه يكبرنى بنحو عشرين عاما . وهو يبيـع افخر انواع الحرير الى اللايين من النـاس لينعموا بالنوم عليه، بينما اقضى انا ليالى اتقلب على مـا هـو اقسى من الشوك ! .

ــ انك شاعرة !

فضحكت ثم قالت وهى تدنى وجهها من وجهه :

ــ وانت ماذا تفعل فى مصر ؟

ــ اكتب شعرا وابيعه للناس كما يبيع زوجك الحرير .

ــ بينما زوجتـك لا تحس نعيم الحيـاة الشاعرية التى تعيش فيها قارئاتك

ــ لم اتزوج بعد .

ــ ولم تحب ؟

فتلفت حوله .. كانت «غرفة البلوط » قد احتشدت بالناس، وعلا ضجيجهم حتى اصبح من العسير عليها ان تسمع كلماته الا اذا الصق فمه بأذنها .. فأجابها :

ــ ان الحـديث عن الحب لا يحلو فى هذا الصـخب .. الا تعرفين مكانا آخر ؟

ــ أعرف كهفا تحت الارض فى الفندق المواجه .

ــ هيا بنا .

ــ لا .. اسبقنى وانا اتبعك بعد قليل . قلت لك ان معظم من تراهم يعرفوننى

ــ ولـكننى سمعتك أيضـا تقولين انك لا تهابين السنة الناس

ــ بدأت أهابها منــذ عرفت أنك شــاعر . وانني ســأفضي اليك بآلامي علك تخفف عني.. من يدري ؟ ربما استطاع عربي مثلك قدم من الصحراء القاحلة ان يشفي نفس أمريكية عز عليها الشفاء ، وسط هذه الحضارة الصاخبة .

***

وعندما كان يعبر « الافينيو الخامس » الى فندق « شيري نيزرلاند » حيث اتفقا على اللقاء، احس أن روح هذه الصديقة التي لم يعرف بعد اســمها ، تنطوي على آلام لا تفترق عن آلام الصديقات المجهولات اللاتي خلفهــن في مصر .. واللاتي أوحين اليه بكل ما قدم للناس من شعر .

كان الألم يطارده ، كأن بينهما ثأرا قديما . فقد تبعه حتى الى البلاد التي صهرت الألم وأحالته الى ذهب وفــولاذ وموســيقى ورقص ! .

وجلس الاثنان على أريكة من ارائك الكهف الذي أعد للهاربين من الحياة على الارض أو فوق ناطحات السحاب .

وقصت عليــه « فيوليت » قصــتها ... انهــا من أسرة انجليزية نبيلة .. هاجر أبوهــا الى أمريكا وهي بعــد طفلة ، فتلقت تعليمها هناك .

وعرفت طبيبا أمريكيــا على ظهر باخرة كانت تعبر المحيط بين أوروبا وأمريكا ، ثم تزوجته، ولكنها سرعان ما تبينت انه لم يكن الرجل الذي يســتطيع أن يسعدها فأحبت غيره . وتمردت على الاوضاع الاجتماعية فعاشت مع ذلك العشيق في كوخ على شاطىء البحر في « لونج ايلاند » وعلى ظهــر مركب من مراكب الصيد التي تجوب شواطىء كوبا. وفي فندق خلوي من الفنــادق القائمــة في جبال المــكسيك ، احبته حبا جنونيــا انساها كل

شيء . لانه جرف أمامه كل شيء . وفجأة استيقظت من تلك النشوة على الحقيقة الهائلة ، فان اسرة ذلك العشيق لم تقبل أن تحمل اسمها امرأة اجترأت على ما اجترأت عليه « فيوليت » ! وتقدم أذ ذاك ملك عجوز من ملوك المال يعرض اسمه ويطلب يدها ، فقبلته . وخيل اليها للمرة الثالثة ـ انها تستطيع أن تستعيض عن الحب والشباب بالمال والجاه العريض ، ولكنها لم تستطع ان تقاوم الثورة التي اندلعت نيرانها في أعماق روحها الشابة ، فاستسلمت لها ... كان في نظراتها شرر ولهب ، وكانت الكلمات التي تندفع من شفتيها المتلظيتين، حمماو سعيرا

واستمع « هو » الى قصة تلك الامريكية الفاتنة .. ثم ربت على كتفيها في رفق وقال لها :

ـ لقد عشت معي هذه الليلة في ماض مر وانقضى .. ان كل ما استطيع أن انصحك به هو ان تسدلي على هذا الماضي ستارا

فاطرقت ثم تمتمت : وهل يمكن الهرب من الماضي ؟

ـ أجل . سافري . ارحلي من هذه البلاد التي شهدت خيبة غرامك .

ـ الى أين أرحل ؟

ـ الى « مونت كارلو » .

ـ اوه ! انني أهاب ركوب الطائرات ...

ـ ماذا تقولين لو صحبتك الليلة الى « مونت كارلو » سيرا على الاقدام ؟

ـ كيف ؟ أجننت ؟!

ـ تعالي معي

***

وتأبط ذراعها ثم اجتازا شوارع نيويورك الى ملهى

« مونته كارلو »

وعزفت الموسيقى قطعة« هناك ذهب قلبى » فراقصها ، ولما الصقت وجهها بوجهه سمعهـاتهمس :

ــ ماذا فعلت بى ؟ ما زالت كلماتك ترن فى أذنى .. أننى أريد الآن أن أطيعك واهرب من الماضى ... الى اقصى العالم .. لقد سمعت الساقى الاسبانى فى« غرفة البلوط » يسألك عن المكان الذى ستقضى به عطلة آخر الاسبوع فأجبته بأنك ستقضيها هنا . فى هذه المدينـــة التى لا شعر فيها ولا عاطفة . أتقبل أن نهرب معا من ماضينا ؟!

ــ الى أين ؟

ــ لا تسألنى . سأمر غـداً عند الفجر بباب الفندق لآخذك ثم .. نهرب معا .

***

ومرت « فيوليت » بسيارتها فى الموعد الذى حددته وانطلقت السيارة بهما .

مرت على غابات ، وهضبات ومزارع ، وسهول ، حتى وصلت الى مفترق طرق فى اعلى جبال« بوكونو » فقرأ « هو » على لوحة تشير الى احد هذه الطرق ما فهم منه انه يؤدى الى مكان اسمه « أرض الميعاد » . فرجاها أن تسلك ذلك الطريق

وصعدت « فيوليت » بسيارتها هضبة عالية يتوســـطها الطريق الى « ارض الميــعاد » وهى بقعة تكســـوها الخضرة ، وتطل على بحيرة .

وقضى الاثنان فى هذا المكان يوما باكمله . بين السباحة فى ماء البحيرة ، وصيد السمك من قارب والجلوس على الشـــاطىء والاستمتاع بالحديث العـــذب الشهى . فلما اقبل موعد الغداء

اسرعت « فيوليت » الى سيارتها وعادت بما كانت قد اعدته بيديها من غداء لصديقها ، وبعد ان انتهيا من الغداء استلقت على الرمل ووضعت راسها على ساقه ، ثم اطالت النظر الى عينيه وهى تتمتم :

ـ اننى احبك .. واحس انك لو اردت لتبعتك الى حيث تريد ، ولكننى مع ذلك لا اريد ان احرمك من أن تمتع نفسك بهذه الحياة الامريكية الى اقصى حد. حرام أن تستأثر بك فتاة واحدة. لا تتردد فى أن تصارحنى . انك شاعر ومن حقك ، بل من حق الناس عليك أن تعيش حرا .

وأدار بصره الى حيث اشارت . وهو يداعب شعرها الذهبى .. وفجأة سمع صوت موسيقى وغناء ، يحمله هواء الليل من بعيد ، فلم يصدق اذنه فى بادىء الامر ، لأن الموسيقى التى سمعها كانت شرقية صميمة ، والاغنية كانت اغنية يحفظ كلماتها عن ظهر قلب ، فطالما عطرت هواء حديقة منزله الخلوى الذى كان يقوم على ربوة عالية تطل على صحراء مصر الغربية . ولكنه أرهف السمع فحمل اليه هواء « ارض الميعاد » صوت « أم كلثوم » يرتل :

م البعاد اسهر آدادى

وفى حركة آلية رفع يده التى كانت تداعب شعر « فيوليت » ثم أخذ يجيل بصره فى المكان .. فلم يجد احدا . وخيل اليه انه قد أصيب بمس من الجنون . فاخذ يتمتم بلغته «ما هذا ؟ »
وسألته هى فى حنان دون أن تفهم شيئا :

ـ ماذا تريد يا حبيبى ؟

ولم يقو اذ ذاك على ان يكتم عنها سبب اضطرابه . فاشارت عليه ان يتجها الى مصدر الصوت . ولما وصلا اليه ، وجدا أسرة

امريكية من اصل سورى تقضى عطلة آخر الاسبوع فى نفس المكان ، وتستمتع باحدى « الاسطوانات » المصرية

***

وحاول أن يقاوم ليلتئذ لكى يبدو ، وكأن شيئا لم يحدث ، ولكنه لم يوفق . وتلقى فى صباح اليوم التالى هذه الكلمات :

« أشكر لك من كل قلبي نصيحتك لى بأن أهرب من ماضى ، فقد أخذت بهذه النصيحة واستطعت أن أهرب من ذلك الماضى الى جانبك ونحن فى أرض الميعاد ، على بعد بضع ساعات من ذكريات ذلك الماضى . أما أنت فقد خيل اليك انك هربت من ماض أجهله ، بعبورك المحيط الى هذه البلاد . ولكن هذا الماضى تبعك وطاردك . انك اقوى يا حبيبى من هذا الماضى . انا واثقة من ذلك برغم ان صلتى بك لا تعود الى اكثر من أيام . نصيحتى انا اليك أن تعود الى هذا الماضى حيث تركته ، فاذا تغلبت عليه هناك فثق انك ستجدنى فى انتظارك »


سامى وسميرة

« أعيد عرض فيلم روميو و جولييت فى احدى دور السينما الصيفية »

« سامى

لعلك دهشت فى مساء الجمعة الماضية ، عندما رايتنى اشب على قدمى واتعمد ان اريك نفسى حين انيرت قاعة السينما الصيفية وتبدد ظلامها عقب عرض فيلم « روميو وجولييت » ولعلك ساءلت نفسك فى زهوك المعروف :

« هل عادت سميرة تحاول و صل ما انقطع من علاقاتنا ؟ »

ولكنى أسرع فأؤكد لك اننى ليست لدى اية رغبة فى ان أعود ، ولكنى تعمدت ان اشب على قدمى وأن ادعك ترانى ، تكلفت ان أجعل قسمات وجهى ونظرات عينى وحركات اهدابى تقول لك ، على بعد المسافة التى كانت تفصل بينى وبينك :

« ارايت ماذا يفعل الرجل العاشق اذا أحس بالرغبة فى التضحية من أجل حبيبته ؟ »

وانا أكتب اليك هذه الكلمة لاعيد تكرار ما قلته لك ، دون أن تسمعه ، عندما انتهى عرض (روميو وجولييت) ولو اننى واثقة من انك لم تعلم شيئا ، لانك خلقت هكذا لا تعرف معنى التضحية »

سميرة

جاردن سيتى فى ٥ سبتمبر

***

«عزيزتى سميرة

اما انه خطر ببالى ، ولو برهة خاطفة ، أنك كنت تشبين على قدميك لكى تعودى الى التمحك بى ، فاقسم لك انه ظن خاطىء . لقد رايتك وانت تفعلين ذلك ، ولكن أتدرين كيف فسرت ذلك ؟

فسرته بأنك سئمت النظر الى تلك « الجبانة » التى أرغمنا مخرج ذلك الفيلم الكريه على ان نعيش فيها نحو عشر دقائق ، وفى قلب القاهرة فى شارع ألفي بك ، على بعد خطوات من المطعم الذى تناولت فيه طعام العشاء ليلتئذ وذهبت الى السينما لكى احاول الهضم . أجل أرغمنا ذلك المخرج على أن نعيش تلك الدقائق التى تقززت لها نفسى ، وعرف خياله الرخيص كيف ينجو من « لائحة الجبانات » التى تحتم بناء المقابر خارج المدينة فى حى غير آهل بالسكان .. وهى — اذا كنت لاتعلمين — سارية على الاجانب ، ومنهم رعايا الولايات المتحدة التى ينتسب اليها اصحاب «الفيلم» !

فسرت حركتك اذن بأنها تطلع الى الحياة ، عقب ذلك الاستعراض المضنى لدفن فتاة حية تدعى جولييت فى مقبرة موحشة ، ولمبارزة مثيرة بين شابين الى جانب «تابوت» هذه الفتاة تحت قبو المقبرة . مبارزة تنتهى بأن يسقط أحدهما مضرجا بدمه ، ولاقدام المنتصر فى هذه المبارزة الدموية — ويدعى روميو — على الانتحار بتجرع ألسم ، والسقوط جثة هامدة تحت قدمى التابوت بعد ان يتلوى جسمه كالثعبان من أثر السم الزعاف

واخيرا استعراض ليقظة الفتاة بعد ان يتضح أنها لم تكن قد فارقت الحياة ، ولانتحارها هى الاخرى بمحاولتها رشف السم من شفتى المنتحر رقم (١) فاذا تبينت ان السم قد تطاير من الشفتين وجف كما يتطاير (الكحول) النقى الذى كنت تساعديننى احيانا على تنظيف ربطات عنقى به واخراج بقع الحبر منها قبل خروجنا سويا ، عمدت الى خنجر حاد فأغمدت نصله فى صدرها ، فانفجر دم قلبها قانيا غزيرا .. وسقطت

تتلوى هى الآخرى كالحية على جسم روميو !

هذا هوالاستعراض التى لجااليه مخرج «روميو وجولييت» وأحسن اختيارالاطار الذى قدمه لنا وهو قبو « جبانة »

أؤكد لك «يا ميمى» انتى ايقنت بعد ان جمعت اعصابى الممزقة ، ان المثل العامى المصرى الذى يقول : «الناس عاوزين جنازة يشبعوا فيها لطم» اقدم من شكسبير .. ولااخفى عنك شعورا آخر هاجمنى اذ ذاك . فقد « سقط » من نظرى كل النقاد المسرحيين المصريين الذين ساهموا فى تحرير الابواب المسرحية فى الصحف والمجلات — مع انك تعرفين ان روابط صداقة عديدة تربطنى بالكثيرين منهم — لانهم هاجموا يوسف وهبى اكثر من عشرة اعوام لسبب واحد . هوانه «اسف» فى بعض مسرحياته ، الى حد اسالة دماء بعض ابطاله ، واسدال ستار تلك المسرحيات على منظر « ندابة » أو صراخ ام ثكلى . .

فماذا يقول اولئك النقاد الآن فى شكسبير ابى الدرامة الشعرية ، وهو يزهق ثلاثة ارواح فى ثلاث دقائق، ويستخدم فى هذه العملية كل وسائل القتل .. السيف والسم والخنجر .. وان يوفر بذلك على نفسه مهمة حشر دور«ندابة» ايطالية او انجليزية فى القصة ، ليقينه من ان افراد الجمهور الذى سيشاهد مسرحياته ، سيتحولون جميعا الى « ندابات » أو «ندابين» ، كل وفق الطريقة التى تلائم مزاجه وتتسق مع طباع قومه ، وعادات بنى جنسه ..

الم تفعلى انت ذلك ؟ الم تفكرى توا، بعد خروجك من«جبانة» شكسبير ، فى مواجهتى بالتحدى والثورة بدعوى ان «روميو»قد ضحى كل شىءفى سبيل«جولييت» بينما انا لم افعل ذلك من أجلك؟

ولكن ٠٠ هل حقا أن مافعله روميو يعتبر تضحية نبيلة سامية من التضحيات التى يتخيلهـــا العشاق فى لحظات التطهر والنقاء من أجل المعشوقة ؟

جففى دموع عينيك « ياميمى » ، وصمى أذنيك عن سماع آهات المكلومين الذين احتشدوا معك فى « الجبانة » حول توابيت الموتى ، وتحررى من ذلك الجـو المشبع بالصراخ والعـويل وبقع الـدم المسكوب ورائحة السم الزعاف ٠ وتعالى نتحاسب

ماذا فعل روميو من أجل جولييت ؟ ٠٠ انها ابنة أمير من أمراء المدينة ، فاتنة كالحلـم الوديع ، يتمنى رضاها أشرف الشـــبان وأثراهم ، ويتهافت على طلب يدها أشجع الفرسان وأنبلهم أصلا ، وقد رآها فأعجبته ورغب فى الفوز بها ٠٠ ثم رفع القناع الذى كان يخفى به وجهه ، وأرســل اليها نظراته فى اغراء خادع ليوقع ذلك الملاك الطاهر فى الفخ الذى نصبه ٠ وقد كان ٠ وأحبته الفتاة من النظرة الاولى وبدأت سلسلة التضحيات من جانبها هى وحدها ٠٠ أتذكرين ؟ ٠٠ لقد تجرأت وتسللت من حفلة الرقص فى قصر أبيها وانزوت مع روميو فى ركن منعزل لكى تمنحه شفتيها ليطبع عليهما قبلة ٠٠ كان جائعا فطلب المزيد ، ولم تستطع المسكينة ان ترفض ، فوهبته شفتيها مرة أخرى !

أما هو فماذا فعل ؟

لقد أساء الى سمعتها فلوثها ٠ ترك تلك « الشلة » من أصدقائه الصعاليك يتبعونه الى قصرها ، وتجرأ على تسلق سور الحديقـة على مرأى منهم ، لتنطلق ألسنتهم بعدئذ بنهش عرضها فى حوارى المدينة وأزقتهـــا التى اعتادوا التسـكع فيها وارسال الاغانى الشعبية ، و « التلقيح » على كرام العقائل .

واشتدت به الجراة ، فأخذ يقفز كلص على درجات سلم القصر

حتى وصل الى شرفتها ثم طفق يغريها بكلمات الحب والوله والهيام، ولم يفكر لحظة فى سمعة الفتاة التى أحبها وفى الخطر الذى عرضها له ، لو ان أمرها انكشف وهى تستقبل رجلا غريبا فى شرفة مخدعها تحت ظلام الليل

ولم يتغير طابعه الخبيث ، حتى فى هذا الموقف العاطفى النبيل .. فتجرأ فى اليوم التالى على تسلق السلم الحريرى ، الذى صنعته خصيصا لكى يرتفع عليه الى مخدعها .. وقضى الليل بين ذراعيها .. ثم شجعها على ذلك واستغل طيشها الساذج . لم يقل لها مثلا كما قلت لك — يوم عرضت على فكرة القدوم الى الدور العلوى من منزل عمك بشارع المنيرة والتظاهر برغبتى فى استئجاره لكى أتمكن من التحدث اليك فى غفلة من الاهل — « أنت مجنونة ياسميرة . أتظنين ان رغبتى الشديدة فى رؤيتك تنسينى مصلحتك ؟ ماذا يصيب سمعتك لو عرف فيما بعد اننا دبرنا هذه المقابلة معا ؟!»

ولم يثنها عن متابعة تضحياتها برفض الزواج من الرجل الذى اختاره والدها لها ، مع انه كان يعلم علم اليقين ان العداء القديم المستحكم بين أسرته وأسرتها ،كان يجعل زواجه بها مستحيلا.. لم يفعل كما فعلت أنا عندما قلت لك وأنا أبكى:

« ثقى ان اليوم الذى أدعك فيه تلطخين سمعتك من أجلى ، هو اليوم الذى أكون قد بدأت أكرهك فيه . اننى اذا ظللت عزبا طول حياتى فان هذا لايشينني . أما انت .. فان ألسنة الناس لا ترحمك ياسميرة .. ان سيدات أسرتك سرعان مايذعن عنك انك «بائرة » ولم تجدى رجلا يطلب يدك . ورجال الاسرة لايتورعون عن أن يتهامسوا عنك كعاشقة لم توفق فى غرامها »

لقد قلت لك هذه الكلمات . مازلت أذكر . ولكن روميو لم يفعل

ذلك ، بل قبل على رجولته أن يجعلها مضغة فى أفواه أهـــل المدينة

أما اذا كان قد خيل اليك والى غيرك ممن احتشدوا مساء الجمعة الماضية فى «جبانة» شكسبير ،ان روميو قد ضحى بحياته من أجل جولييت ، فانني أسارع فأذكر أنه كان قدقتل ابن عمها وهرب من وجه العدالة خشية الحكم عليه بالاعدام

ولقد شعر أخيرا عند ما رأى جثتها مسجاة فى قبو المقبرة انه فقد كل شيء .. فقد حقه فى استمرار الاقامة فى مسقط رأسه لأن العدالة تطارده ، وفقد الفتاة التى ضحت بكل شيء فى سبيله، وفقد الامل فى نصب «فخ» جديد فى بلدة أخرى لفتاة ثانية قـد لاتكون لها سذاجة جولييت ،فانتحـر .. واذا كان الانتحار للتخلص من حبل «المشنقة» يعتبر (تضحية) فان أكثر من تمثـال يجب ان يقام فى ميدان باب الخلق لذلك العـدد الكبير من المتهمين فى الجنايات المختلفة الذين يغافلون الجنود الذين يحرسونهم ويلقون بأنفسهم من نوافذ محافظة العاصمة أو نيابة مصر فى الدور الثالث ؟!

انني أصارحك بأنني لم أتعلم شيئا جديدا من فيلم « روميو وجولييت » اللهم ألا ما تبينته للمرة الاولى من ان ايطاليا عريقة فى تخـريج (الجيجولو) وان اختلفت درجاته ، لأن روميو لم يكلف نفسـه حتى مؤونة شراء الحبل الحريرى الذى تسلق به شرفة مخدع جولييت وتركهـاهى تنسجه وتعده له لكى يقنع بتسلقه !. »

المعادي فى ٨ سبتمبر سامي

***

« سامي

ليكن ! فليس غريبا ان يقبل(روميو) كل تلك التضحيات من الفتاة ألتى أحبها دون أن يهبها شيئا .. انه ليس أول رجل نذل فعل ذلك ولن يكون الاخير ! »

جاردن سيتى فى ٩ سبتمبر سميرة

***

« سامى

ألم تضح لأجلى ؟ .. ألم تنصحنى ان أتزوج ؟ لقد قدرت هذه التضحية النبيلة ، ولهذا سأتزوج

اننى لا أريد أن يقول الناس عنى «بائرة . وراهبة . وعاشقة» لا أظنه يرضيك أن يطيل الناس ألسنتهم على الفتاة التى احببتها . سأتزوج .. وأشكر لك تضحياتك كلها من أجل صديقتك السابقة»

سميرة

***

من اخبار الصحف أليومية

زفاف مبارك

احتفل أمس بزفاف الآنسة العريقة سميرة حلمى كريمة المرحوم اللواء احمد حلمى باشا الى الاستاذ عباس فاضل المهندس بمصلحة الموانى والمنائر فى حفلة فخمة جمعت عددا كبيرا من افراد الاسرتين

***

« سميرة

ارايت ؟ لقد كتبت لى فى بادىء الامر ظنا منك ان هناك شيئا جديداً كان على أن أتعلمه من « روميو وجولييت » فلما أفهمتك أن شخصية روميو ليست بالشخصية (المثالية)

التى يحسن بمثلى أن يتخـذهانموذجا له اتضح لك ـ أنتلاأنا
ـ أن هناك شيئا جديدا يجبأنتتعلميه من هذا « الفيلم »
فتزوجت ..
هكذا يجب أن تفهم تضحياتالعشاق فى مصر يا .. سيدتى»
سامى



٢و٧٠٠ر٠٠٠
ثلاجة جنرال الكتريك تستعمل
بنجاح منذ عشر سنوات تقريبا

جنرال الكتريك
U.S.A.

الموزعون المعتمدون للقطر المصري

شركة إيسترن للكهرباء

٣٣ شارع عبد الخالق ثروت باشا ت ٧٨٠٦٠ بالقاهرة
وتباع لدى وكلائنا بجميع أنحاء القطر

SPMO

وتباع لدى : شركة الدجوى ٥ شارع محمد صبرى بباب اللوق القاهرة ٩٨ شارع العباسيه القاهرة ،١٩ شارع سيزوستريس الاسكندرية وفروعها بطنطا والمنصورة والزقازيق ومنوف والمحلة • صالح نسيم شارع فؤاد الاول بالقاهرة • شركة ستيلكس شارع شريف باشا بالقاهرة • يوسف حديدى شارع عباس بمصر الجديدة • نعيم وشركاه ميدان المنشيه بالاسكندريه • عبد الحميد احمد شارع مسجد العطارين اسكندريه • اخوان كافورس بور سعيد • المغربى على باسماعيليه • اخوان نجيب فهيم شارع الامير عبد المنعم بالسويس •

شركة شاهر شارع فؤاد الاول بالقاهرة •


العودة الى سيدي بشر

ثلاثة أعوام انقضت على فراقهما .. وقد حاول اثناءها بكل مافى طاقته ، أن ينسـاها ، وان يمتهـن كل ذكرى من ذكريات غرامهما ، وخيل اليه انه قـد نسيها ، الى ان سافر فى الاسبوع الماضى الى الاسـكندرية فوجد نفسـه يتجه فى حركة آلية الى « سبورتنج » وراعه أن سيارته وقفت امام ذلك المنزل الـكبير الذى اعتادت اسرتها ان تقطن احدى شققه المطلة على البحر .. ووقف برهة ثم تابع سـيره الى « سيدى بشر »

***

كان الليل قد بدا يغمر شاطىء الاسـكندرية بظلامه ، وكان « الكورنيش » شبه خال ، ومع ذلك فانه لم يشـعر بشىء من السأم ، فقد خيل اليه وهو يتجه مسرعا الى « سيدى بشر » انها الى جانبه !

لم يكن قدسافر الى الاسكندرية بعد ان افترقا ، فقد اضطره العمل المتواصـل من اجل انجاز عدد من اللوحات الزيتية لاحد معارض الصور الدولية ، اضطرهالى البقاء فى القـاهرة طول تلك المدة ، ولذا لم يصـدق قط انهاجتاز « الكورنيش » ومر بمنزلها . ووقف على بعد منه واطلق صوت « بوق » السيارة الاجش الذى طالما سخرت منه قائلة :

« ان صوت هذا البوق كصوتك عندما يركبك شيطانك فتثور وتصخب دون ان تدرى ما تقول . الا اننى لا اكرهه . اذ يخيل الى انه يريحك كلمـا عن لك انتثور وتصخب ! »

لم يصدق انه فعل ذلك دون أن تهبط للقياه ، كمـا لم يخطر بباله قط انها يمكن ان تتاخر فى العودة الى منزلها الى ما بعـد

الساعة العاشرة مساء . . .

ووقف مرة اخرى امام ذلك الباب الصغير من ابواب سور « الكورنيش » عند « سيدى بشر » الذى يهبط منه درج صغير الى تلك الصخرة التى اكتشفها فى سفح البلاج . والتى اعتادا ان يلتقيا عندها كلما ارادا

وغادر السيارة بعد قليل وانتظر الوقت الكافى لكى تقفز من جانبها الآخر وتلحق به ، ولكنه انتظر عبثا ، وتبين انها لم تكن الى جانبه ، وزاد احساسه بغيابها ان الهواء كان يصفر صفيرا مخيفا فى ذلك المكان من الشاطىء المظلم .

وتلفت حوله يتفقدها ، ووجد نفسه يصيح كمجنون :

— ديرى . . .

ولكن احدا لم يجب واخذ العرق يتصبب من جبينه فشعر بخوف رهيب . خوف من مرض قاتل . . وتجسم له اذ ذاك غيابها . فقد اعتاد فى مثل تلك الظروف ان يجد اناملها تمتد فى حنان عجيب الى صدره فتضم عليه اطراف سترته ، والى احدى الصحف التى يحملها عادة فتضعها على صدره وهى تتمتم :

— الى متى ستظل كطفل صغير فى حاجة الى من يرعاه ؟ كيف تعرض صدرك للهواء وانت تتصبب عرقا !

وصاح مرة اخرى يناديها . ورفع يده فتحسس بها جبينه . كان لا يزال يتصبب عرقا ساخنا

واشتد خوفه من ان يتحقق ما كانت تنذره به . فهبط الدرج الى سفح « البلاج » لكى يحتمى به من الهواء العنيف الذى كان صفيره قد تحول الى شىء اشبه بزئير مخيف .

واستقرت جلسته على صخرتها . الصخرة التى طالما تحدثت اليه عنها فى رسائلها كلما غادر الاسكندرية وعاد الى القاهرة . .

وصح ما توقعه فقد كانت الفجوة الواسعة التى فى ظهر الصخرة ، تحميه من ذلك الهواء المخيف الذى كان يطارده وهو فى أعلى الطريق المكشوف

***

وانقضت ساعات وهو فى وحدته

كان يسمع أصوات السيارات وهى تمر فوق رأسه مجتازة « الكورنيش » فى رحلاتها الغرامية الليلية ، تحمل الكثيرات ممن يغامرن فى عاطفة تختلف حدة أوهدوءا . واثمـا أو طهرا . انهن كثيرات اولئك اللاتى يقبلن الخروج مع شاب غريب يكفى ان يكون انيق الملبس . وان يجلس خلف عجلة القيادة فى سيارة فخمة !

وقد شعر ليلتئذ ، وهو قابع فى الظلام على تلك الصخرة ، بالفارق بينهن جميعاً وبينها « هى » . . الفارق الهائل الذى لم يكن قد تبين من قبل مداه .

ولم يصدق مع ذلك انها بعيدة عنه .. لم يصدق انها هناك . فى ذلك العالم الذى يموج بآلاف الفتيات . فى دور السينما ، أو صالونات الشاى ، او الفنادق ، او السيارات التى تجتاز « الكورنيش » ، او تدلف الى ضاحية منعزلة من ضواحى القاهرة او الاسكندرية ! لم يصدق قط ، فقد كان لا يزال خاضعا لتأثير ذلك الخيال المجنون . . انها الى جانبه او على الاقل قريبة منه

وسرح الطرف الى الامواج التى كانت تتكسر تحت قدميه . نفس الامواج التى طالما تكسرت تحت اقدامهما — هو وهى — لم تتغير قط . فقد كانت وفية للصخرة اكثر من وفائها لهما . كانت تغسلها فى رفق ثم تنحسر عنها وكانت تحمل اليها ذلك العشب الاخضر ثم تتركه تحتها وتولى . وكان خريرها يحكى لها اثناء الليل ، فى وحدتها ، اقصوصة حنونا كأقاصيص الاطفال

التى ترتل على آذانهم الصغيرة قبل النوم فى ليالى الشتاء !

وامتد بصره الى بعيد . . الى تلك الانوار الضئيلة المتناثرة التى كانت تبدو من قوارب الصيد الصغيرة المتأرجحة على قمم امواج البحر

اى شعور غمره اذ ذاك .

لقد صاح مرة اخرى وهو ينهض ويلوح بيده :

— ريرى ! ريرى !

لقد خيل اليه انه عثر عليها . هناك فى احد تلك القوارب التى فضل اصحابها ان يبتعدوا بها عن المدينة ومن فيها . واشتد ذلك الاحساس فى صدره عندما تذكر كلماتها التى كانت تسكبها فى اذنه اثناء جلساتهما المنعزلة فى طريق السويس او صحراء الفيوم حين يأزف وقت العودة الى المدينة :

« لا اود العودة . كم احب ان ابقى هنا ، بعيدة عن الناس . . اقيم لى عشا يضمنى وماعزة احلب لبنها وكلبا يحرسنى وينبح كلما رآك قادما من بعيد . اوه ! لاتتهمنى بالجنون . اننى لااود ان اعيش الحياة التى يعيشها غيرى . لااود ان ابدو امام الناس فى ثوب من ثياب السهرة ، لاننى لا اريد ان يرى رجل غيرك شيئا من جسمى ، ولا اود ان اشم عطرا صناعيا من العطور التى تشتهيها نساء المدن ، لاننى اريد ان اشم العطر الذى يفوح من ثيابك وكتبك وصورك . طالما تخيلت حياة البدويات اللاتى يتبعن رجالهن مسافات طويلة فى جوف الصحراء ، لا يهديهن الا الرائحة التى تفوح من اجسام اولئك الرجال ، وطالما تمنيت ان اعيش حياتهن . . لا تبتسم ساخرا . . اننى اتمنى ان اعيش هذه الحياة . الى الابد . ولن اشكو او امل . »

**

تذكر تلك الكلمات فخيل اليه انها نفذت ذلك العزم ولكنها ابت

ان تعيش حياة الصحراء ما داماقد افترقا ففضلت حياة البحر ، مع صيادى السمك العجائز الطاعنين فى السن ! تطهى طعامهم وتهيىء شباكهم . وترتق ثيابهم وتشاركهم فى ذلك العمل الفطرى، فتخرج ، اذا ما خيم الظلام ، الى عرض البحر ، تبحث معهم عن الرزق الغامض المجهول .

وبكى . . . !

فقد هاجمته كل ذكريات غرامهما ..

ووقف طويلا امام ذكرى اليوم الاول . الذكرى التى طالما سعدا باستعراضها ليثبتا ان القدر كان ينسق فى تفكير سليم لقاءهما الاول يوم هبط فى الساعة الثالثة من بعد ظهر احد ايام شهر سبتمبر منذ بضعة اعوام الى « بلاج » ستانلى الذى كان خاليا اذ ذاك ، بعد ان غادره المستحمون ، فلم يكد يصل الى الدرجة الاخيرة من السلم حتى لمحها فى ثوب رياضى ابيض من ثياب « البلاج » واقفة الى جانب احدى قريباتها ، فلما راته يتلفت كانه يبحث عن شيء ، مع انه لم يكن فى الواقع يبحث عن شيء ، بل لم يكن يعرف ما الذى ساقه الى هناك يومئذ ، سمعها تردد اسمه فى صوت عال لقريبتها :

واحس اذ ذاك بزهو عجيب . لانها عرفته ونطقت باسمه . لم تكن تلك هى المرة الاولى التى سمع فيها اسمه يتردد على الافواه، فلطالما سمعه فى بعض دور السينما ، او اثناء سيره فى الطريق او ترديده على بعض المكتبات . كانت صوره التى تكرر نشرها للمناسبات المختلفة التى كانت تعرض فيها لوحاته ، تتيح للكثيرين والكثيرات معرفته وتبين شخصيته اثناء سيره ، ولكنه يومئذ شعر بزهو خاص ! لانه ايقن بأن « القدر » هو الذى ساقه فى تلك الساعة الى ذلك المكان ليلقاها .. ليلقى الفتاة التى

كان يجب ان يلقاها يوما ما . والتى كان مفروضا ان يعدو خلفها وسط آلاف الفتيات الاخريات . وسط الحشد البشرى الحاشد، والا ييأس مهما تجنت وجفت وتدللت ، لانه كان يحس انها هى وحدها ألتى تقوده الى المجد ! فتحقق كل ما كان يرجو ، وعرفته هى من قبل ان يعرفها ،بل نطقت باسمه فى لهفة . . كأن عاما كاملا انقضى على آخر لقاء.

وتذكر . . .

تذكر يوم تحدث اليها فى التليفون ، ورجته فى صوت خافت ان يستمع الى الراديو فى المساء ، فلما اعتذر بأن لديه عملا هاما قد يعوقه ، الحت ، فسألها :

ــ ولم هذا الالحاح ؟

فأجابت :

ــ ستستمع الى قطعة موسيقية بديعة احب ان نسمعها معا

واراد ان يخرج ليلتئذ على طاعتها فقال :

ــ ما هى هذه القطعة ؟

ــ لااستطيع ان اطيل الحديث الآن فأنا اتحدث من الصيدلية التى بجوار المنزل . لان الاسرة مجتمعة حول التليفون . عدنى بأنك ستستمع الى موسيقى الراديو هذا المساء

***

ولما استمع الى « الراديو » ليلتئذ كانت قطعة مطلعها

« وقفنا نذكر العهد وايام الوصال »

وتذكر . . .

تذكر يوم نفد البنزين من سيارته فى طريق السويس فنزل هو وهى ، ودفعا السيارة بأيديهما حتى وصلا بها الى المكان العامر بالسكان وهما يضحكان فى صوت عال مرح

برغم العـرق الذى كان يتصبب من جبينهما !

وتذكر . . .

لم يفته شيء من ذالك المـاضى المغرم الحبيب .

***

وفى اليوم التالى تلقى الفنان الشاب هذه الكلمة :

« لا اريد ان تفسر رسالتى بشيء اكثر من انهـا تصف ليلة غريبة قضيتها الى جانبك ، او على الاقل قريبة منك . انت على الشاطىء وأنا فى قارب بعيد من قوارب الصيد التى تطفو انوارها الواهنة على سطح الماء كعقد تناثرت حبـاته . لقـد جئت الى الاسـكندرية مع اسرتى لقضاء صيف هذا العام ، بعد ان عاقتنا ظروف الحرب فى الاعوام الخمسـة الماضية عن المجيء ، وقد حاولت ان اعود الى « سـيدى بشر » وحـدى ، فلم اقو على هـذه العودة ولذلك خطر لى ان احوم حوله ، كأننى جانيـة احوم حول مكان جنايتى .. فخرجت الليلة فى قارب صغير الى عرض البحر واخذت انظر الى صخرتنا من بعيـد دون ان اجرؤ على الاقتراب منها فى غيبتك

لقد التقينا مصادفة فتعارفنا دون ان يتوسط احـد فى ذلك التعارف وافترقنا لسبب تافه . لست ادرى على وجه التحقيق لم افترقنا . فلنترك مصيرنا فى يد القدر نفسه . . اننى واثقة من اننا سنلتقى ثانية . هنا . او هناك . على صـخرتنا . او فى الطريق . او فوق ظهر الباخرة . او تحت سقف عشة من عشش البدو فى الصحراء . وسنتحاب وسـيكون كلانا لصـاحبه . اتسمع ؟ سنتحاب . .

كأننا لسنا الآن متحابين »


بين رجلين

لم يصدقها أحد كلما اكدت انها عندما صارحت راشد بحبها ذات ليلة من ليالى الصيف ، كانت تجهل تماما ثروة ابيه . لم يصدقها أحد قط ، لان راشد حلمى الطالب بكلية الزراعة كان معروفا لجميع الفتيات اللواتى يقضين فى الاسكندرية صيف ذلك العام .. معروفا بسيارته السوداء الفخمة وبالالف فدان التى يملكها ابوه حلمى باشا فى دكرنس

أما هى فلم تر سيارته الا بعدان تعاهدا على الزواج ، ولم تكن ظروفها تسمح لها اذ ذاك بالخروج معه ، فقد كانت تقضى الصيف فى منزل شقيقتها الكبرى انصاف ، التى كانت متزوجة من مدرس باحدى مدارس الاسكندرية ، وهورجل ينتمىالى اسرة صعيدية محافظة ، ولهذا ما كان يسمحلهما بالخروج الا ساعة او ساعتين فىعصركل يوم، تقضيانهما أمام « الكابينة » الصغيرة التى استأجرها لزوجته فى « ستانلى » ، ثم يحضر بنفسه ليصحبهما الى المنزل . ولم تكن لتستطيع قط ان تخرج على ارادته ، لانها كانت تعلم تماما أنها لو فعلتلوضعت شقيقتها فى مركز دقيق لا يعلم احد عواقبه

ولكن كان القدر على الرغم منذلك ، يمهد لزواجها من راشد بمهارة عجيبة .. فقد راته لاولمرة يمر امام « الكابينة » مع رهط مناصدقائه فى ثياب البحروهم يضحكون ويوجهون الى الجالسات نظرات شرهة نهمة يعوزها الكثيرمنالحياء .. وكان هو يشترك معهم فى كل شىء .حتى وصلالىالمكان الذى كانت فيه ، فحاول أن يلفت نظرهااليه بكل الطرق التى يعمد اليها الشبان عادة ..حام حول «الكابينة » عدة مرات . غرس مظلته

الكبيرة فى الرمل على بعد خطوات منها . ولكنهـا كانت منهمكة فى قراءة كتاب لم ترفع بصرها عنه قط ، ولم يعلق بخيالها من ذكريات ذلك اليوم الا انها سمعت احـد اصـدقائه يقول فى صـوت عال مشيرا اليها :

ــ انها لا تريد ان ترفع راسها ابدا

فأجاب راشد فى صوت هادىء ارتجف له جسدها :

ــ لا . انها مصممة على ان تظل مرفوعة الرأس

فقطبت وجههـا ، وازدادت انحناء على الكتاب المفتوح ، ولكنها مع ذلك لمحت راشد يشير الى زملائه ان يبتعـدوا ، وسمعته يقول لها فى همس كأنه يعرفهـا قبل ذلك ببضعة اعوام :

ــ ليتك تعبسين دائما هكذا فى وجه كل رجل

***

ولم تنقض بضـعة ايام حتى تعـارفا . رآها فى احـدى دور السـينما الى جانب اسرائيلية تشتغل حائكة ثياب للسيدات ، وكان يعرفهـا ، لانها تتردد على منزل اسرته ، فرجاها ان تقدمه اليهـا . .

وكان ذلك بدء حب عنيف جرفهما

وتكرر لقاؤهما فى الاسكندرية حتى انتهى الصيف ، وعادا الى القـاهرة وهما متعاهدان على الزواج

وفى القـاهرة عرفت عنه كل شىء . . . عرفت ثروة ابيـه الضخمة ، وصارحها بمخاوفه من ان يعارض فى زواجه منها . من ابنة موظف بسيط ، كان يشغل قبل احالته الى المعـاش وظيفة « وكيل » احد مكاتب البريد فى القاهرة . . وخطر لها أن تنصحه بألا يتهور فيقـدم على اغضاب أبيه من اجلها . . ولكنها كانت قد احبته الى حد الجنون ، فلم تستطع الا ان تقول وهى تبكى :

ــ عرفت منــــذ طفولتى ان الشقاء مكتوب على

ــ لم تهتمين بكلام الناس الى هـــذا الحد . لنفرض اننى ابن رجل فقير ، ولننتظـــر حتى اتم دراستى ،ثم ارتزق من عملى كما يفعل غيرى

فتعلقت اذ ذاك بعنقه ثم تناولت يديه تغمرهما بدموعها وهى تصيح :

ــ سأحبك يا راشـــد اشد من حبى لك الآن ، عندما اراك تنفق على وعلى بيتنا من عرق جبينك . لست فى حاجة الى هـــذه السيارة الضخمة التى تركبها ، فالناس يعلمون ان اباك هو الذى ابتاعهـــا لك

***

وقد كان . . .

نال راشد دبلوم كلية الزراعة فى أوائل صيف . . . . وتم عقد زواجه بسهير فى غيبة ابيه ،لانه لم يوافق على زواجه منها . كما ان احدا من اسرته لم يحضر، فقد كانوا جميعا يحرصـــون على ارضاء ابيه . ذى الافدنة الالف . ولو ان احـــدا منهم لم يكن لديه ادنى امل فى ان ينال شـــيئا من تلك الاراضى الواسعة

وقد تم زفافهما فى هدوء . .بمنزل شقيقتها انصـــاف ، التى اعانتهـــا على ارتداء ثوب انيق انتظرت به زوجها حتى حضر . . لم تنطلق الزغاريد فى ارجاء المنزل كمـــا جرت العادة فى حفـــلات الزفاف . زغرودة واحدة فقط انطلقت مختنقـــة من صـــــدر « الطاهية » الحبشية العجوز ،التى اشرفت على تربيتهـــا هى و «أبله» انصاف ثم استمرت على خدمتها بعـــد ان تزوجت . ولم تتقدمها « العالمة » بأنشودتها التقليدية « اتمخطرى ياحـــلوة يازينة . ياوردة من جوه جنينة »ولكنها مع ذلك كانت سعيدة . .

لم يكد المأذون ينتهى من عقد القران حتى التفت راشد اليها وادنى عينه من عينها ، وحدق فيها طويلا ثم قال فى صوت خافت خنقته الدموع :

ــ احس انك تتمنين ان تكون فرحتك بهذا اليوم اعظم واكمل. ولكن ثقى ياحبيبتى اننى سأسعدك . سأعمل كألف رجل لكى اجعلك اسعد فتاة على وجه الارض

فتمالكت قواها وضغطت على راحة يده ثم قالت :

ــ اننى اسعد فتاة يا راشد

وتمت اجراءات تعيين راشد فى تفتيش الزراعة بأسيوط ، فكان أن ودعا السيدة السويسرية العجوز صاحبة « البنسيون » الذى ظلا يقطنان احدى غرفه بعد الزواج بضعة ايام ثم سافرا . .

لم يشعر احدهما بأى ألم من مفارقة القاهرة التى ولد كلاهما فيها ، مع انهما لم يجربا البعد عنها من قبل ، الا زمنا يسيرا اثناء الصيف فى الاسكندرية

وبدآ حياة الزوجية الصحيحة فى منفلوط ، وهو المركز الذى ألحق به راشد مهندسا للزراعة ، بعد ان قابل رئيسه مفتش الزراعة بأسيوط . . اختارا منزلا صغيرا فى اقصى البلدة على الطريق الزراعى ، تحوطه حديقة صغيرة ، وتفصله عن المساكن مساحات كبيرة من الاراضى المزروعة

وابتاعا من أحد تجار الاثاث فى « بندر » اسيوط ، القطع الضرورية لتأثيث المنزل ، واتفقا معه على أن يجعل الثمن أقساطا شهرية يحتملها مرتب راشد

ولكنهما كانا سعيدين . اسعد زوجين فى هذه الدنيا . .

وانقضت بضعة شهور لم يشعرا فيها بأى ملل من حياة

الريف . كان كل منهما يبـــذل أقصى الجهد لكى يشعر الآخر بأن الهناء الحقيقى هو التفاهم بين زوجين شابين متحابين ، يعيشان تحت سقف واحد . اســـتبدلا بحياة « التشرد » القصيرة التى عاشـــاها فى الأيام القليلة التى أعقبت الزواج ، حيـــاة أخرى منظمة ..

كانت سهير تسيقظ عند الفجر ، ثم تمشى الى الحديقة لتجمـــع بعض وردها وأزهارها ، وتضعها فى آنية خزفية زرقاء ، اشترتها من « أسيوط » لتزين بها المائدة ، ثم تعد طعـــام الافطار .. بيض تجمعه بنفسها من « تقفيصة » الدجاج الذى أشرفت على تربيته . لبن من القروية الشـــابة التى أعتادت أن تمر مبكرة فى صـــباح كل يوم أمام باب المنزل ، وقد جذبت بقرتها بيد ، وحملت كوب اللبن بيد أخرى . بعض العسل الأبيض الذى عنى راشد بان يجعل لنحله خلية فى أقصى الحديقة ، وطبق عليها النظريات التى تلقاها أثناء دراسته الزراعية

واخيرا توقظ زوجها من النوم ، بعد ان تكون قد اعدت كل شىء ، فاذا تناول الطعام ودعته الى باب الحديقـــة ، وعادت لتشرف على تلك الدنيـــا الصغيرة التى خلقاها خلقا ، وتفننا فى تجميلهـــا بكل ما لهما من ذوق واحساس ..

***

فى هـــذه الفترة كان راشد لا يعلم من أمر والده حلمى باشـــا شيئا .. كانت أخباره منقطعة عنه تماما ، وطالما رجتـــه سهير أن يطلب أجازة قصيرة يسافر فيها الى القاهرة ليرى أباه . ولكنه كان فى كـــل مرة يتعمد تغيير الموضوع ، فلما اشتد الحاحهـــا انتهرها ذات مرة وقال :

ـ انك لا تعرفين أبى كما أعرفه . لو ذهبت اليه الآن لحيل

اليه أنني أتصور جوعا.. انني اطمئن على صحته من بعض زملائه أعضاء مجلس الشيوخ عن مديرية أسيوط .. وفى هذا ما يكفى

ولذلك كانت دهشتهما عظيمة عندما تلقى راشد من أبيه صباح ذات يوم هذه الرسالة :

« ولدى راشد

أقبلك وأرجو أن تكون بخير. كنت اليوم فى وزارة الزراعة فعلمت أن رؤساءك راضون عنك كل الرضى ، وأنهم جميعا ينظرون اليك بعين التقدير . يجب أن أصارحك بأننى لم أكن أتوقع أن توفق هذا التوفيق فى حياتك الجديدة التى اخترتها بنفسك لنفسك ، دون أن يكون لى رأى فيها ، ولكن مادام الله قد ساعدك، فهذا دليل على أنك لم تكن مخطئا كل الخطأ فى تصرفك

قابلت اليوم أثناء وجودى بالوزارة ، الطبيب البيطرى الذى نقل الى مركزكم منفلوط . وقد كلفته أن يتصل بكم ويطلعكم على المشروع الخاص باصلاح الأرض، لتبدى رأيك فيه وتكتب الى تفصيلا عنه »

دهش الزوجان الشابان عندما تلقيا هذه الرسالة بعد أن طال صمت الأب تلك المدة . ولكنهما ارتاحا الى تبدد ذلك السحاب الأغبر الذى خيم على حياتهما بعد الزواج

واستفسر راشد عن موعد وصول الطبيب الجديد ، فلما عرفه ذهب للقائه فى محطة منفلوط لكى يدعوه لتناول العشاء فى منزله

وقد بذلت سهير كل جهدها لكى تضفى على المنزل جوا من الأناقه والرشاقه

ووقفت العربة أمام باب الحديقة ،وسمعت راشـــد يناديها باسمها فأسرعت الى الباب

***

كان الظلام قد خيم على منفلوط • وكانت أضواء المدينة تبدو من بعيد • وقفز راشد منالعربةوتبعه الضيف ، وهو شابطويل القامة نحيف ، اختفتعيناهخلف«نظارة» زرقاء ولـــكن سـهير استطاعت أن تلمح وجهه علىضوءالمصباح الذى كان هواء الريف يهزه هزات متسقة

وأسرع راشد فقدم ضيفه الىزوجته قائلا :

ــ الدكتور سيد شاكر

ومد الضيف اذ ذاك يده فرفع « نظارته » والتقت عيونهما

وعندئذ مادت الارض تحت قدمى سهير ، وأيقنت أنها ستقع لشدة الدوار الذىانتابها، وبدتالانوار البعيدة التى تضىء البلدة كأنها انوار ميناء يبتعدشاطئهاعن ســفينة غارقة تدفعها ريح عاتية ..

اذن فقد انتصر حلمى باشا وهزمها هزيمة أليمة ••

كان الرجل الذى أمامها،والذى لاشك أن والد زوجها قد بحث عنه طويلا حتى اهتدى اليه ،هوخطيبها السابق ــ الرجل الذى أحبته قبل أن تعرف راشدبثلاثةأعوام وتعاهدت معه على الزواج ، بعدما تفتحت بين يديه مغاليـققلبها

ولكنها قاومت وبذلت جهـداهائلا لتسيطر على أعصابهـا ، وتبدو هادئه ، ثم رفعت رأسهاونظرت اليه •• الى شاكر ••

كانت تعرفه جيدا ، وتعرفكيف تقرأ قسمات وجهه ، برغم أنها لم تره قبل ذلك بخمســةأعوام

كان يبدو جليا أنه أقبل ليلعب دورا هاما فى مأساة حياتها ،

وخطر لها اذ ذاك أن تصرخ وتصارح زوجها الذى تحبه بالحقيقة كلها . الحقيقة التى أخفتها عنه .. ولكنها جبنت

لقد صارحته بكل شىء عندما تعارفا وتعاهدا على الحب والزواج .. فلماذا اخفت عنـــه انها احبت قبله رجـــلا آخر ، عاهدته هو أيضا على الزواج

وشجعها على الصمت المرهق الشاق ، ان شاكر لم يظهر عليه أى تأثر يمكن ان يفهم منه أنه عرفها ، أو ان بصره سبق أن وقع عليها ، فقد انحنى فى أدب رقيق ، ثم مد يده فصافحها

كانت يداها متثلجتين

وتقدم راشد فصعد الدرج أمامهما وهو يقول :

ـ تفضل يادكتور .. لقد شرفتنا وآنستنا . أرجو أن ترضى عن هذا البيت الصغير

فابتسم شاكر وقال وهو يجيل بصره فى الحديقه :

ـ بيت مدهش .

فاستمر راشد فى كلامه :

ـ لقد أنسانا هذا البيت مرارة النفى الى الصعيد . كل ركن من أركانه يذكرنا ـ سهير وأنا ـ بأمر سعيد .. فقد قضينا شهر العسل فيه .. وعندئذ وجه شاكر الى سهير نظرة خاطفة ثم قال :

ـ أشكر للباشـا الوالد هذه الفرصة الطيبة التى اتاحها لى ، اذ أرسلنى اليك ياراشد بك ..

فسأله راشد :

ـ وكيف حال أبى ؟

ـ بخير .. ممتلىء صحـــة ونشاطا برغم كبر سنه ، اتعرف يا راشد بك أن مشروع أرض دكرنس مشروع جليـــل . لو نال نصيبا من اهتمامك لتحولت تلك الارض الى جنة ..

فأرسل راشد ضحكة مرحةمن ضـحكاته الطليقة التى تدل على نقاء روحه ، ثم قال وهو متجه الى سهير :

ـ قبل أن نبدأ الحديث عن مشروعات الرى والصرف فى أرض دكرنس ، اصحبى الدكتورشاكرفى مشاهدة بيتنا

فلم تجب

ولكن راشد كان قد اتجه اذ ذاك الى مكتبه وفتح أحد أدراجه ، ثم أخرج منه بعض أوراق وضعها عليه ، وأخذ يتصـــفحها كأنه يستعد لبدء المناقشة مع ضيفه. وتحرك شاكر قليلا الى باب غرفة المائدة ، فوجدت نفسها مسوقة الى أن تتقدمه لتريه المنزل ، كما طلب زوجها

ولم تكد تبتعد قليلا عن غرفة المكتب التى تركا فيها راشـد ، حتى التفت شاكر اليها وقال وهو متهجم الوجه :

ـ أقسم لك ياسهير أننى لم أكن أعرف أنك هنا .. لم أعلم من قبل انك تزوجت .. وحلمى باشا لم يذكـــر اسمك أمامى قط .. معذرة .. ولكن ثقى أننى أشد منك اضطرابا ـ

فزاد اضطرابها اذ ذاك .. لأنها فى بادئ الامر كانت موقنة بأن حلمى باشا لم يجد وسيلـة يبعد بها ابنه عن زوجته ، الا أن يكشف ذلك الستار الذى أسدلته على ماضيها . فبحث حتى اهتدى الى شاكر وارسله اليها كأنه لعنة من لعنات القدر تلاحقها وترفع السوط فى أثرها .. كانت موقنة بذلك . ولكن عندما أكد لها أنه لم يعرف شيئا عن زواجها ، بدأت تكذب نفسها فتمتمت فى صوت مرتجف :

ـ عندما رأيتك توقعت خراب بيتى .. لقد أخفيت عن زوجى كل مايتصـــل بعلاقتنا السابقه

وعندئذ دنا منها وقال فى لهجة حنون :

ـ ألم تصدقيني بعد ! أقسم لك مرة أخرى أن المصادفة اللعينة هي التي جاءت بي الى هنا

ـ انني لا ألومك · أعرف انك لا تتردى الى حيث خيل الى في بادىء الامر ، أعرف ذلك لانني لم أسيء اليك قط ،اتذكر هفوة واحدة هفوتها معك ، أو كلمة قاسية وجهتها اليك · · تكلم ياشاكر ·· تكلم بصراحة ؟ ·

ـ أبدا

ـ أخشى أن تكون قد حملت في نفسك ضغينة لا أدرى لها سببا

ـ أبدا · أبدا

ـ عندما عرفتك كنت لاتزال طالبا ، وكنت أنا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى··كنت طفلة ·· ولكن ست سنوات قد انقضت ·· ست سنوات طويلة كفيله بتغيير كل منا · ألا ترى أنها كفيلة أيضا بأن تنسينا طيش الطفولة ·

فأطرق شاكر الى الارض ثم همس :

ـ لست أدرى اذا كانت تلك الذكرى قد محيت تماما من خيالى أم لا ··

ـ اذا لم تكن قد محيت تماما فاجتهد أن تمحوها · · أرجوك ألا تكثر من التردد على بيتى ·· فانني كلما تخيلتكما معا في غرفة واحدة وأنا الى جانبكما أكاد أجن

ـ ماذا تريدين أن أفعل

ـ ستبيت هذه الليلة ، فقد طلب مني أن أعد لك الغرفة التي تطل على الحديقة · ولكن بعد أن تتفاهم معه على ما حضرت من أجله، أرجوك أن ترحمني ولا تحضر ·· قلت لك انني أكاد أجن من فرط ما أعاني من تأنيب ضميرى· · ارحمني ياشاكر ·· ليس لى في

الدنيا الآن الا زوجى .. هو أبى واخى وابنى وزوجى . . هو كل شيء لى

***

كان منزل سهير يضم فى تلك الليلة زوجها وخطيبها السابق. الرجلين اللـذين أحبتهما دون سائر الرجال

كانت ليله من ليالى الصيف القائظه ، فلم يستطع زوجها أن يغمض جفنا

وتظاهرت سهير فى بادىء الامر بالنوم، لكى تتحاشى الحديث معه ،خشية أن يلحظ اضطرابها، ولكنها رأته قد تسلل فى بطء ووقف يشرف على الحديقة ،وهو يشعل سيجارة تلو الاخرى فسألته :

ـ ماذا بك ياحبيبى ؟

فأجابها وهو يعود الى جانبها:

ـ أحمد الله على أنك استيقظت من تلقاء نفسـك ..فقد كنت معتزما ايقاظك

ـ لماذا ؟

ـ لكى أخبرك بأننى لم أحبك قط من قبل كما أحبك الليلة

ـ كيف ؟

ـ لا أدرى

ـ ولم فكرت فى ذلك ؟

فأجابها بعد تردد :

ـ اننى أحس أن أبى قد أرسل الدكتور شـاكر لكى يرى كيف نعيش وليتحقق من مبلغ تعلقى بك ، ولم أستطع أن أصارحه بحبي لك حبا لم يسبق لرجل أن أحبه لامرأة ، ولذلك ظللت أفكر فى خير طريقة أدعه يتحقق بها من قوة ذلك الحب، حتى ينقل خبره

الى أبى .. هذه الخواطر كلهـا جعلتنى أحس أن حبى لك قد تضاعف

وشعرت سهير اذ ذاك برغبة قـوية فى أن تلصق جسمهـا بجسم زوجها ، وبأنها فى حاجة قصوى الى آن يحميها من الناس ومن خطيبها السابق ، وحتى من نفسها

وساد سكون رهيب

وهز راشد رأسه وهو يتأمل معها البلدة المظلمه النائمة تحت أقدامهما ، كأنها جارية تحلم أحلامها الساذجه

وسادت فترة سكون أخرى

وزفر راشد زفرة حادة ، ثم مد ذراعه وطوقها فى رفق ، وأخذ يستعيد ذكريات الايام الاولى لغرامهما . كأن احساسا خفيا كان يلح عليه أن يفعل ، خشية أن يداهم ذلك الغـرام خطر مجهول

وكانت هى اذ ذاك تستعيد ذكريات أخرى ، لم يعرفها ولم يسمع عنها

ذكريات كان قد خيل اليهـا عندما احبت راشد ، ان النسيان قد أجهز عليها

ولكن تلك الليلة من ليـالى الصعيد ، أيقظتها فجأة وبعثتها لتمعن فى عذابها

وانقضت بضعة أسابيع

***

واستأجر الدكتور سيد شاكر مفتش المركـز البيطرى ، منزلا فى « بندر » منفلوط لسكناه ، ولكنه كان يتردد من وقت لآخر على منزل راشد ليتم بحث موضوع أرض دكرنس

وكانت سـهير تبذل أقصى جهدها لكى تتفـادى اطالة المكث

معهما عند زيارته ، كانت ترجف خوفا من أن تضعف أمام خطيبها السابق الذى خفق قلبها له بأول عاطفة وأول حب ..

ولكن المصادفات أرادت أن تهدم ماكانت تبنيه . فقد أقبل شاكر ذات مساء الى المنزل طبقا لموعد كان قد اتفق مع زوجها عليه فى الصباح ، فلم يجد راشد ، لأنه كان قد استدعى لمقابلة مفتش الزراعة فى المديرية .. فسافر دون ان يعتذر لشاكر، ولم تجد سهير بدا من الجلوس مع « الضيف »

وحاولت أن تعاملة معاملة سيدة بيت لضيف زوجها .. فأعدت قدحا من الشاى وقدمته له مع بعض الحلوى وقطع «الكيك» التى كانت قد طهتها بنفسها فى الصباح . وجلسا الى مائدة تطل على حديقة المنزل ، أحدهما قبالة الآخر

وتعمد شاكر أن يتجاهل تكلفها القيام بدور سيدة البيت الكريمة التى تؤدى «واجبها» نحو صديق لزوجها ، أقبل لزيارته على موعد

وتناول قدح الشاى ثم بدا يرتشف منه دون أن يتكلم، بل كان ينظر الى أشجار الحديقة ، وينصت الى موسيقى الضفادع كأنه مشغول بها عن اكتشاف ارتباكها وهى تبذل ذلك الجهد الشاق المرهق لكى تبدو هادئة طبيعية . وبعد قليل التفت اليها وسألها :

ـ أتسمحين بقطعة من السكر ياهانم ..

وأسرعت باعطائه مايريد ، ولكنه أرسل ضحكة جافة ساخرة وقال :

ـ ألا ترين اننا نمثل الآن دورين ، ان لم يكونا سخيفين ، فهما على الاقل ثقيلا الظل

فقالت وهى تبتعد قليلا بمقعدها :

ـ لماذا ؟

ـ أتنكرين أن كلامنا ما كان يتصور قط ، أن يأتى يوم أناديك

فيه كما ناديتك منذ لحظة ٠ ٠ «ياهانم» ؟

ــ ٠ ٠ ولكن ٠٠

ــ ولكن ذلك اليوم أتى ٠ ٠ أتستطعين ياسهير أن تخبريني لم افترقنا منذ ستة أعوام ؟

ــ وما مناسبة هذا السؤال الآن ؟

ــ وماذا يخيفك من الاجابة عليه ؟ ٠٠ ألم تؤكدى لى أن زوجك هو كل شيء في حياتك الآن ٠ لنقتل الوقت في الحديث عن تلك الذكرى القديمة « المنسية » ٠٠ طالما تساءلت ٠٠ لم افترقت عن سهير ، فلم أهتد الى جواب ٠ أتذكرين آخر لقاء لنا ؟

ــ قلت لك لا تبعث هذه الذكرى الميتة

ــ اذا كانت قد ماتت فلم تخشينها ياسهير ؟

ــ لا تنادني باسمي

ــ هكذا اعتدت في الماضي ٠٠

ــ لا أقدر على احتمال هذا العذاب ٠٠ لا أقوى

***

ونهضت مسرعة وهي تبكي ثم دخلت غرفة نومها وأغلقت خلفها الباب .

وبعد قليل سمعت وقع خطواته وهي تهبط الدرج وتتقدم الى باب الحديقة ، فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن تتقدم الى النافذة المغلقة لتقف خلف «الشيش» وتراقبه وهو يبتعد متجها الى البلدة .

لقد سار ــ تماما ــ كما كان يسير قبل ذلك بستة أعوام ، عندما كان يتقدمها الى سيارته في نزهاتهما الخلوية ، ثم تتبعه خشية ان يراها احد .

وخيل اليها أن أصوات الضفادع التى ترتفع من قنوات

الحديقة ، كانت ترتل كلمة واحدة لا غير « الماضي ! »
ورفعت يديها ثم سدت بهما أذنيها ، حتى لا تسمع شيئا .
لقد كان الماضي يطاردها في قوة رهيبة لا ترحم .

***

وتوالت أيام وليال أخرى
وعرف شاكر ان استعادة تلك الذكريات القديمة تثير اعصابها فعدل عنها .
وجاء زوجها ذات يوم يخبرها بمرض الدكتور شاكر ، ورجاها أن تصحبه في زيارته ، فجفلت وترددت ، ولكنه كان يتكلم بلهجة هادئة كأنه يعرض امرا عاديا ، فلم يسعها الا القبول .
وذهبا لزيارة شاكر ، كان يظن أنه مصاب بانفلونزا عادية ، ولكنهما لما دخلا غرفته ، وجداه يشكو صداعا حادا وآلاما شديدة في المفاصل ، فسأله راشد :
ـ ألم تعرف درجة حرارتك؟
فأجابه :
ـ ابدا ، ولكنني أشعر بقوى تخور
وعندئذ قال له راشد وهو يعطى مقياس الحرارة لسهير :
ـ لقد احضرت معي مقياس الحرارة لانني أعرف حياة العزاب أمثالك (والتفت اليها وهو مستمر في كلامه) .. ضعي هذا المقياس في قليل من الكحول ، ثم اخبريني بدرجة حرارة الدكتور .
وتناولت المقياس واجمة . واجالت بصرها في الغرفة ... كان يبدو انها غرفة شاب عزب ملابسه مبعثرة في كل مكان . بعضها على «المكتب » والبعض الاخر فوق سقف «الدولاب»

أو تحت السرير ، كتبه يعلوهاالتراب ، زجاج النوافذ محطم، وقـــد استعيض عنه ببعض الصحف القديمة . ارض الغرفة ملوثة ببقع المداد . .

ولاحظ شاكر انها تبحث عن زجاجة الكحول ، فقال لها وهو يستجمع قواه ليبتسم :

ــ زجاجة المدادالاسود التي ترينها هناك على المكتب ، بهـا قليل من الكحول ياسهير هانم

وطهرت المقياس ثم وضعته في فمه ، ووقفت الى جـــانب الفراش تنتظر النتيجـة ، ولم تكد ترفع المقياس حتى صرخت .. كان مصابا بالحمى ، فقـــدتجاوزت عنده الدرجة الحادية والاربعين .

وصاح به زوجها :

ــ كيف سكت حتى وصلت الحرارة الى هذه الدرجة ،دون أن تستدعى طبيبا ، سـأخرج حالا لاحضار طبيب المركز .

ثم التفت الى زوجته وقال :

ــ ابقى الى جانبه ياســهير الى أن اعود مع الطبيب

وخلت الغرفة الا من ســهير وشـاكر ، ومد شـــاكر يده فأمسك بيدها

كانت الحمى قد احالتها قطعة من الجمر ، ولكنها احتملتها ، وفتح عينيه وشخص الى عينها طويلا ثم تمتم :

ــ ضـعى يدك على جبيني ياسهير .. لايمكنك أن تتخيلى هول عـــذابى .. أترين كيف أعيش . اترين أن المناقشـــة التافهة التى دارت بيننـا عنـد طبيب الاسنان ، منذ ســـتة أعوام ، قدغيرت حياتى كلها .كيف هجرتنى هذه الاعوام دون أن يؤنبك ضميرك .

***

كان يهذى وهــو مغمض العينين ، وكانت تشخص الى شــفتيه الشــاحبتين اللتين جففتهما الحمى . الشــفتين اللتين طالمــا تلقت قبــلاتهماوطبعت عليهما قبلاتهــا . . . الشفتين اللتين لم تتعبا من كثرة ماسكبتا فى أذنيها هذه الكلمة:

« احبك ياسهير »

وفتح شاكر عينيه عنــدمارآها صامتة وقال :

ـ انت زوجتى ياسهير

واشتد ذعرها حينئذ . . .ورفعت يدها عن جبينــه ، وحاولت الابتعاد وهى تقول :

ـ ماذا دهاك ياشاكر ؟...أهكذا اثرت الحمى فيك ؟ .. أنت تعرف اننى زوجة رجــل آخر احبه .

ـ لاتظنى أننى اهــذى من الحمى ... آننى واثق من انك تخدعين نفسك قبل أن تحاولى خديعتى ، عنــدما تزعمين انك تحبين راشد

ـ كيف ؟

ـ لاننى عرفتك طفلة.. لم يكن قد مر قبلى رجل فى حياتك لا يمكن أن تكونى قــد أحببت راشد كما أحببتنى .. لقــد تزوجته لاننى لم أعد اليك بعد آخر لقاء

ـ ولم لم تعد ؟

ـ قسمتى .. لقــد شقيت كثيرا بعد ذلك .. بحثت عنك فى كل مكان .. طالمــا مررت بالاماكن التى اعتــدنا ارتيادها وناجيت نفسى : أين أنت ياسهير، ولكن القـــــدر أراد ان نلتقى ثانية .. لاتوجد قوة تستطيع ان تفرق بيننا بعد اليوم

ـ لاتقل هذا الكلام والا ..

ـ والا ماذا ؟

ـ والا أخبرت زوجى

ـ ولم أخفيت عنه هـذا الماضى الى اليوم

ـ جبنت ، ولكنك بهـذا الكلام ستدفعنى الى مصارحته

ـ بم تصارحينه ؟ . . بأنك احببت قبله . بأننى اول رجل خفق قلبك بحبه . . . بأنك اقسمت الف مرة على أن تكونى لى وحدى ؟

فاستجمعت قواها ثم قالت وهى متجهمة الوجه :

ـ سأنكر اننى أحببتك . وانا واثقة من انه سيصدقنى

ـ ولم هذا كله ؟ ألم تخدعينه وتخدعين نفسك ؟. لم لا تعودين الى ؟.. اننى لم اتحول عن حبك . وانت . فكرى . . انك ايضا لم تتحولى

وبكت وهى تنزع جسمها من بين أصابعه المتشنجة . لقد كانت تؤمن بأنها احبت زوجها حب العبادة ، قبل ان تلقى شاكر . . . ولكنها منذ لقيته تبينت أنها لم تنس ذكرى الآخر .. حبها الاول لا يزال راسبا فى قلبها .

وفى هذه اللحظة سمعت صوت راشد وهو يتحدث مع طبيب المركز عند باب المنزل ، وتجلد شاكر ثم قال لها مسرعا فى صوت خافت :

ـ لاترددى ياسهير .. دعى راشد ليعود لابيه وتعالى معى .. لقد أعددت كل شيء . سأسافر فى بعثة الى خارج القطر لمدة خمس سنوات .. سنسافر معا .. تكلمى .

فقالت وهى تجفف دموعها :

ـ لاادرى .. ان راشد يحبنى كما احبه . لااستطيع ان انسف حياته بهذه الوحشية انه لم يسىء الى قط .

ــ اذا فقدك راشد كسب الف فدان .. اما اذا فقدتك أنا ، فقد فقدت كل شيء

***

ولما انتهى الطبيب من فحصه امر بما رآه لازما .. فعاد راشد وسهير الى منزلهما

ولكن سهير لم تستطع ليلتئذ ان تنام حتى الصباح

كانت فريسة للنضال الهائل بين الرجل الذى علمها كيف تحب ، والرجل الذى أحبته فضحى كل شيء من اجل ان يهبها اسمه .

وبعد اسبوع شفى الدكتور سيد شاكر ، واقبل يشكر لراشد عنايته به أثناء مرضه.

وقد لاحظت سهير فى فترة العشاء انه كان يوجه اليها نظرات خفية ، كانت كلها تسألها : هل فكرت ؟.

وبعد العشاء غادر المنزل عائدا الى البلدة ..

ولكن لم تكد تنقضى بضع ثوان حتى سمع دوى طلق نارى ، وصرخة اليمة عالية تمزق سكون الليل .. والتقى بصر سهير ببصر زوجها وتمتما:

ــ شاكر.

واسرع راشد فهبط الدرج، ثم خرج الى عرض الطريق وهى تتبعه

كان شاكر مضرجا بدمه ،عند أقصى سور الحديقة

واقبل « الخفير» على الفور فصاح به راشد :

ــ الم تر القاتل ؟

فأجاب :

ــ نزل فى الذرة

ـ تعال معى

ـوتركهما زوجها الى جانب جثة شـــاكر وتوغل فى حقل الذرة ومعه الخفير

***

وانحنت ســـهير على جثة شـــاكر ، والدم يتفجر حارا غزيرا من قلبـــه ... كانت الرصاصة قد نفذت من القلب تماما ، وصاحت فى صـــوت منتحب مذعور : «شاكر» ولكنه لم يجب

ولمحت بين أصابعه ورقة لم تكد تتناولها حتى قرات فيهـا هـــذه الكلمات ، بخط كانت تعرفه .. ولم تلبث ان تبينت انه خط والد زوجها حلمي باشا: «ماذا حدث ؟ .. لقد تأخرت فى انجـــاز مهمتك مع انك كنت تؤكد لى ان انجازها لا يستغرق منك اكثر من بضعة أيام، انني مازلت عند وعدى لك. ولكننى اعـود فأكرر انني أعرف ابني أكثر منك ..انه لن يتركها الا اذا تركتـــه هى . . والا اذا تحقق من انها تفضل عليه رجلا آخر . أرجـو أن اسمع عنك أخبارا سارة فى القريب العاجل».

واكتفت بقراءة هذه الكلمات وكانت لاتزال منحنية على الجثة فرمقتها بنظرة اشمئزاز هائلة، كأنهـــا جثة أفعى مقتـــولة ، واخفت الرسالة فى صدرها، ثم عادت الى منزلها ..

وأقبل راشـــد بعد قليل فوجدها جالســـة فى الشرفة المطلة على الحديقة التى اعتادا ان يقضيا فيها بعض الوقت فى كل ليلة.. وعلمت منـــه ان شيخ الخفراء استطاع القبض على القاتل ..وهو مزارع كان شاكر قد اضطهده فأمر باعدام بعض مواشيه ، بحجة انهـــا مصابة بأمراض وبائية ..

واستأذن راشد فى الخروج لكى يكون الى جانب المحققين،

واعطاها «قرصا» من الإقراص المعينة على النوم وهو يقول:
ــ يجب أن تنامى ياسهير فقد أثر هذا الحادث فى اعصابك سأعود بعد قليل

ولم يكد يصل الى الباب ،حتى نهضت ثانية واحرقت الرسالة التى تناولتها من بين اصابع « المرحوم شاكر » خطيبها الاول ..

ثم عادت الى فراشها

***

وفى الصباح . . استيقظت على قبلة طويلة طبعها راشد على شفتيها . . ولما نهضت مسرعة لكى تعد طعام الافطار، وجدت أنه سبقها فنزل الى الحديقة ، واعد الطعام الذى اعتادت أن تعده هى له منذ زواجهما ، وبعد أن انتهيا من تناول الطعام جذبها من يدها واوقفها الى جانبه فى النافذة. ثم اشار الى القطار الهابط الى القاهرة وهو يقول :

ــ هذا القطار يحمل نعش المرحوم سيد شاكر . . لقد عملت المستحيل لكى يصرح وكيل النيابة بشحن الجثة كما طلب أهله .. رحمة الله عليه. كان شابا طيبا سيحزن أبى لوفاته حزنا شديداً

واغرورقت عيناه بالدموع .

وبكت هى الاخرى . بكت لان نفس ذلك القطار الذى أقل جثة شاكر ، كان يمكن ان يقلها هى وشاكر لو انها اطاعته ، دون أن تعلم أنها مسوقة الى فخ نصبه لها

كان الله يحبها. لانها لم تسيء حتى الى من أراد الاساءة اليها



١١ سبتمبر

كم أنا متعب !

لقد تلفت منذ لحظة فوجدت ان قطرات العـــرق التى تساقطت من جبينى على الاوراق المتناثرة أمامى قد طمست الاسطر التى سجلت بها قصيدتى الاخـيرة .. القصيدة التى حاولت فيها ان أصور حياة « لين » الراقصة الفرنسية التى تعمل فى أحد ملاهى الاسكندرية ، والتى حدثتنى ليلة امس عن شقائها وهى تتشبث بكتفى ، وقد تقلصت أناملها عليها كأنها تخشى السقوط . . والقاعة نصف مظلمة . كأنها كهف دير تؤمه الفتيات اللاتى خابت أحلامهن فى الحب .. والموسـيقى تعزف تانجو «احملونى الى ذراعى الرجل الذى أحبه » .. لقد أثرت فى كلمـات تلك الراقصـة التى تجاوزت الثـلاثين بقليل تأثيرا عميقا ، وظلت تدوى فى أذنى بعد ان غادرت الملهى قبيل الفجر . ولاحقتنى وانا أستقل قطار الصباح الباكر الى القاهرة .. ولم تتركنى حتى جلست الى مكتبى انظم هـذه الابيات التى لم اجد لها عنوانا خيرا من هذه الكلمة «أحملونى»

***

لم تكن «لين» اجمل راقصات الملهى . ولكننى مع ذلك لم استطع أن اقاوم رغبة قوية فى أن أطيـل النظر اليها بعد أن استقرت جلستى قريبا منها ، اذ كانت وحـدها بمنأى عن زميلاتها ، وقد وضعت امامها كأسا من «البيرنو» لم تلبث أن تجرعتها ، ثم طلبت الى الخادم ان يحضر اليها غيرها . لست ادرى اى شعور غريب تسلط علي اذ ذاك بأنهـا مثلى .. حضرت الي ذلك المكان لترى و تتأمل لا لتعمل وترتزق !

واحسست «لين» انني أطلت النظر اليها، فلمانهضت لأدعوها الى الرقص ابتسمت ابتسامة مرة ، ثم انحنت وهمست فى صوت خافت ــ صوت ثمل متهالك ــ : انني لا احب هذه « الرومبا » ، هل يضايقك ان تنتظر الى ان تعزف الموسيقى «تانجو» ، انني ارسلت الآن من يرجو فى عزفها ؟

ودعوتها الىتناول كأس اخرى ، ولمتنقض بضعثوان حتى عرفت انني شاعر مبتدىء .. كما انى اترجم لبعض شعراء وطنها ..

ــ شاعر ! لا تغضب ياسيدى اذا صارحتك بأنني امضيت فى الاسكندرية ثلاثة اشهر . خيل الي بعدها ان هذه البلاد لا شعراء فيها ..

ــ لم ؟

ــ لأنني لاحظت ان الشبان الذين يترددون على هذا الملهى يعتقدون ان نساءه يجب ان يحتفظن بمرحهن مادامت أبوابه مفتوحة تتلقى الزبائن ، وانواره مضاءة ، وطبول فرقته الموسيقية تدوى .

ــ لم اعثر بواحد يستطيع أن يفهم ان خلف هذه الثياب المتجردة التى يفوح منها العطر ، قلوبا تنزف من جراح قديمة لم تندمل بعد .. تنزف دما حارا . فى صمت ..

***

قصت علي « لين » قصة حبها العنيف ، وهى فى نشوة ذلك الكحول الاخضر الذىكانتتحتسيه بشراهة مخيفة ... القصة التى بدات خطوطها الاولى على مائدة من موائد مقهى «الدوم» فى مونبارناس

كان رجلها نحاتا تركيا مبتدئا لا يتجاوز الرابعة والعشرين ،

وكانت هى تعمل سكرتيرة فى احدى الشركات الألمانية الكبرى، والمستقبل الباسم ينتظرها ، وقد نالت ثقة رؤسائها وخطت خطى واسعة فى تعلم اللغة الالمانية ، فلما عرفت الباريسية الشابة ابنة الثانية والعشرين ، ذلك النحات التركى الناشى ، التهبت غراما به واعتادت أن تسرع ، بعد خروجها من عملها، الى «استديو» صديقها النحات الذى كان لا يزال يتوق الى المجد والشهرة ، والذى لم يكن قد وفق الى أن يثير أحد تماثيله الرخامية ، اهتمام جريدة او مجلة من مجلات باريس العديدة

وبدا ينحت تمثالا لصديقته « لين » وكاد ينتهى من نحته عندما خرجا سويا ظهر ذات يوم من أيام الصيف الى حدائق « باجاتيل » وتناقشا فى الاسم الذى يحسن اطلاقه على التمثال .. ثم وضعت ذراعها تحت رأسه ، ومالت بصدرها على صدره ، وحجبت بجسدها حرارة الشمس عن عينيه ، ورجته ان ينام لانه قضى الليل ساهرا فى نحت التمثال فنام .

ولما استيقظ وعاد الى منزله ، كان لا يزال منتشيا بعطر صديقته الباريسية .. العطر الذى كان يفوح من صدرها ..

ورفع رأسه الى التمثال ..

كان صدر «لين» ظاهرا فيه بشبابه ويقظته واعتزازه ، وفجأة خطر لشوقى أن يطلق على تمثاله الجديد اسم «ظل امرأة»

***

وعرض التمثال. وفاز النحات التركى الشاب، وسط باريس الصاخبة ، بأكبر ما يمكن ان يفوز به نحات مبتدىء من نجاح .. وأخذت الصحف تنشر صورة « شوكى » كما شاءت لهجة الراقصة الفرنسية أن تسميه وهى تتحدث الى ،

وذاع صيته واقبلت سيدات باريس الفاتنات على «ستوديو» النحات ...

ولما وصلت الراقصة الفرنسية الى هذا الجزء من قصة حياتها ، بدأت الموسيقى تعزف لحن رقصة «التانجو» الذى كانت قد ارسلت ترجو عزفه ، فتقدمتنى الى حلقة الرقص وبدأت خطانا هادئة لينة ،ولاحظت اذ ذاك أن عينيها قد امتلأتا بالدموع ، فلم تجد المسكينة وسيلة تخفى بها تأثرها الا بأن تلصق خدها بصدرى .

وسمعت بعد قليل همهمة خافتة تهمس على صدرى ، كأنها تأبى الا أن تتحدث الى قلبى وحده :

ـ لم استطع أن ابقى طويلا الى جانبه .. كان يجب ان ينطلق عدوا الى المجد الذى كان ينتظره ، وكنت احبه حتى العبادة وابدو الى جانبه اينما ذهب، ولقد شعرت بمضى الوقت كأننى ـ وهذه حالتى ـ اعرقل سيره الحثيث نحو مجده المنشود.. يجب ان نعترف بأن الواحدة منا عندما تحب ذلك الحب الهائل الجبار تصبح احيانا عبئا ثقيلا يحمله الرجل على ظهره ويعوق سيره ، اننا عندما نحب نغار . ونتشاجر . وقد نفقد الرشد فنرتكب حماقة تلوث طريق المجد الذى يجب ان يفرش بالورود والرياحين تحت قدمى الرجل المحبوب ، هل تعرف اننى أسرعت بمغادرة باريس ، لقد فعلت ذلك لأننى دخلت ذات ليلة الى «ستديو» شوقى فوجدت امراة واقفة امامه وقد كشفت عن صدرها لكى ينحت لها تمثالا وكنت اعرف انها عشيقة مدير متجر من اكبر متاجر العطور، وانه تعهد بدفع مبالغ ضخمة لشوقى كأتعاب عن نحت التمثال ،

فنسيت نفسي وفقدت شعوري وهجمت عليها وانا أكشف عن صدري واصرخ في نوبة جنون:

« لاتظنى أن صدر كل امرأة يصلح لكي يوحى فكرة فنية لتمثال جميل » وفي صباح اليوم التالى تبينت ، بعد أن ثبت الى رشدى ، أن الواجب كان يقضي على ان اترك لصديقى فرصة لتحقيق احلامه ، فلم اتردد طويلا ورحلت ... غادرت باريس ومعي حقيبة صغيرة تحتوي على بعض ملابس ومجموعة من المجلات التي نشرت صورة تمثالي ، تمثال «ظل امرأة» .. أنها عندي وتستطيع أن تراها . انا اسكن في بنسيون على مقربة من ميدان محطة الرمل ، تعال غدا لتتناول معي الشاي . لاتحضر قبل الساعة الرابعة مساء ، لانني لن أكون قد استيقظت »

ولما انتهت الموسيقى من عزف لحن «احملوني الى ذراعي الرجل الذي أحب» كانت «لين» قد خارت قواها تقريبا فأعدتها الى مكانها وطلبت لها قدحا من القهوة ... ثم تركتها وانصرفت .

***

وفي صباح اليوم التالي فكرت ان أفي بوعدي واذهب لتناول الشاي معها ، ولكنني ترددت ثم عدلت وعدت الى القاهرة بقطار الظهر ..

لست أدري كيف اثرت في قصة تلك الراقصة الفرنسية تأثيرا خفيا عميقا ... اثرت في الى حد أنني لم اشأ أن انفرد بالجلوس معها مرة أخرى اثناء تناول الشاي ، حتى لاتعود الى سرد تلك القصة .. قصة حبها التعسة التي تطاردها ذكرياتها في قسوة عاتية .

انني أنظر الى الاوراق التي سجلت فيها قصيدتي «احملوني» وقد طمستها قطرات العرق الذي تصبب من جبيني في هذه الليلة القائظة الحر ، واذكر وجه «لين» الجميل وقد طمست دموعها المتساقطة من عينيها الفاتنتين أصباغ التجميل المختلفة الالوان التي كانت تبدو بها قبل أن تثمل وتفضي الى بقصة حبها لذلك النحات التركي الشاب ..

لقد ذابت تلك الاصباغ واختلطت على قسماتها الوديعة كما ذابت أسطر القصيدة التي كانت هي وحي فكرتها .

***

١٣ سبتمبر

انتهيت منذ لحظة من نظم قصيدتي « احملوني» لكي أعدها للنشر . ودق جرس «التليفون» في غرفتي الهادئة المنعزلة المطلة على حديقة مهجورة من حدائق المنيرة القديمة . فلما اجبت سمعت صوتا لم يكن لي به عهد من قبل ... صوت سيدة تتحدث في خفوت كأنها تخشى ان يسمعها أحد غيري .

ــ الاستاذ منير عاصم موجود ؟

ــ أنا منير ... من يتكلم ؟

ــ لايجب أن تعرف

ــ كيف ؟

فأجابت بلهجة لم تخل من اعتزاز .

ــ أجل . لايجب أن تعرف من انا الآن .

ــ ولم ؟

ــ لانك لو عرفت اسمي لااستطيع ان اتحدث اليك كما أريد ، ان الموضوع الذي اود ان استشيرك فيه دقيق غاية الدقة

وانا فى حيرة من امره .. هل لديك ما يشغلك عن حديثى ؟
ــ لا. لقد انجزت ماكان لدى من عمل قبل أن تتحدثى
ــ ماذا اعددت للنشر هـذا الاسبوع ؟
ــ أانت زوجة ؟
ــ أجل زوجة رجل تعرفه.
ــ ومن المفروض طبعـا أن لا اسأل «من هو»
ــ لاتسأل . ولاتسألنى .. اتوسل اليك .
ــ من انت ؟ او اين تسكنين.. أو هل رأيتك من قبل ؟
ــ ثق ان التى تتحدث اليك تعرفك حق المعرفة.. لقـد رأيتك اكثر من مرة وقرات لك الكثير من شعرك وتحدثت اليك كثـيرا دون ان اسمع صوتك، تحـدثت اليك دون ان اقابلك أو اجلس معك، لاتدهش ....احيـانا كنت اقرأ لك موضوعا جال من قبل بخاطرى ،ورجحت انك ستكتب عنه، فاذا وجدتك قد كتبت عنـه اختليت بنفسى فى غرفتى وناقشتك كأنك جالس أمامى ...

لو ان احـدا رآنى فى ذلك الوضـع لما تردد فى الحكم على بالجنـون .. كنت أعرف ذلك ولكن شيئا واحدا كان يعزينى، هو ثقتى بأننى سـأعرفك يوما ما ،وسأراك وأتحدث اليك و..
واختلجت الكلمات فى صوتهـا وسادت فترة صمت فقلت :
ــ وماذا ؟
ــ وسـأحبك .... كماستحبنى
ــ سنتحاب ؟!
ــ أجـل سـنتحاب ...اننى واثقة من انك ستحبنى ، ولكن دعنا من هذا الموضوع الآن.اريد ان أعرف رايك فى شـاب تزوج فتاة كانت أسرتها تستطيع ان تجد لها الف زوج افضـل

منه . ولكنها فضلته لانها احبته ثلاث سنوات قبل الزواج كما احبها ، وظلت تحبه بعد أن تزوجته ولم تقصر معه فى واجب ، وحاولت أن ترضيه بكل وسيلة ، لاتذكر انها قابلته عند عودته من الخارج الى منزله الا تزينت وتعطرت وغمرت الابتسامة وجهها ، ولم تتدخر وسعا فى أن تتودد الى شقيقاته وضحت بصديقات طفولتها لكى تقتصر على صداقة أولئك الشقيقات .. حرصت على شعوره حتى امام أشقائه . لم تقابل واحدا منهم حتى فى المنزل الا سترت كتفيها ، لا يستطيع واحد منهم ان يدعى انها مزحت معه مزاحا لايليق ، أو شجعته على هذا المزاح .. وكان جزاؤها منه على هذا الوفاء ، انه أحب أبنة عمها وحاول أن يغريها على الخيانة .. وكانت هى أخر من عرف .. وظلت بضعة شهور تروح وتغدو والناس يشيرون اليها وهم يهمسون قائلين : « مغفلة ! »

***

القت السيدة التى تحدثت الى ، هذه الكلمات الاخيرة فى لهجة مؤثرة ، ثم سكتت .. وأحسست أنها كانت تقاوم أذ ذاك رغبة فى البكاء ، فاحترمت صمتها المنتحب ثم سالتها :

— وماذا فعلت هذه الزوجة ؟

— لاشىء .. جمعت ثيابها وسافرت الى بيت أهلها ، بعد أن تبينت أن جدران البيت الذى ضمها هى وزوجها أربعة أعوام قد سرى فيه سم زعاف . وأن مقابض مقاعده واراائكه قد تحولت الى حيات وثعابين .. خيل لها أن أثاث ذلك البيت . الاثاث الذى أختارته بنفسها واحبته واضفت عليه من روحها وذوقها ، قد أشترك مع زوجها فى خيانتها . لم تعد تطيق أن تعيش معه او حتى ان تلمسه ، ووصل بها الامر الى حد أنها كانت تنطلق فى بعض

نوباتها الى النوافذ فتفتحهـا على مصاريعها ، وتخرج رأسهـا من احداها لتملأ صدرها من هـواء الطريق ٠٠ هربت من بيتها ٠٠ لكى تستطيع أن تشتنشق هواء نقيا فى الخارج

ــ ولم ذهبت الى بيت أهلها ؟

ــ حدث مايحدث دائما فى مثل هذه الحـالة ٠ حـاول « هو أن يسترضيها من جهة ، وظل أهلها يكررون على اذنيها نفس النصائح التى تعرفها ٠

ــ وعدت الى بيتك ؟

ــ كيف عرفت اننى صـاحبة هذه القصة كلها ؟

فضحكت وقلت :

ــ كمـا عـرفت إنت أننـا سنتحاب !

وسادة فترة صمت اخـرى ثم تابعت حديثها :

ــ عدت ٠ ولكننى اؤكد لك اننى عنـدما اقتـربت من الحى الذى يقع فيـه ذلك البيت الذى ضمنى أربعة اعوام خيل الى اننى غريبة عنه ٠٠ حديقة البيت التى وضعت بيـدى بذور ازهارها ، ورويتهـا حتى نمت ، قد تغيرت حتى كدت انكـرها ٠٠٠ كانت الزهور قد ذبلت وتدلت ، وخيل الى انهـا خجـلى ، ولذلك حنت رؤوسهـا الشـاحبة ! جـدران البيت قد تهدل طلاؤها ، وبدت عليها أثار مياه المطر كأن سياطا قد الهبت ظهرها ! ولما صعـدت الدرج طغى على شعور عجيب . اشتد خفقان قلبى عندما تقدمت الى باب غرفتى ٠٠ الغـرفة التى طالما احببتها لانها كانت تجمـع اعـز ذكريات حبى لزوجى ٠٠ كتاب كان قد قرأ « هو » جزءا منه وتركه لى لكى أتم قراءته والخص له ما قرأت ٠٠٠ ربطة عنق كنت قد اشتريتهـا له طلب منى فى الصبـاح أن اكويهـا بيدى لكى يلبسها فى المساء ٠٠ منديل كان قد اشتراه لالفه حول عنقى ٠٠٠

ولكنني عندما عدت يومئذ وضعت يدي على عيني لكيلا أرى شيئا من تلك الذكريات

– اكانت عـودتك من زمـن بعيد ؟

– منذ ستة أشهر • حـاولت كثيرا ان انسى زلته فلم استطع. لقد كتمت عن أهـلي سر عـلاقته بابنـــة عمي ، لان كبريائي لم تسمح لي بأن أفضح ذلك السر • أقسم لك أنها لو كانت أجمل مني أو أصغر سنا • او اكثر تعليمـاما تأثرت هـذا التأثر الهـائل الذي هـد صحتي حتى بت أبدو مسلولة !

– مسلولة ! ؟

– اجل ••• أن هذا التعبير يفزعك ولكنني فقدت نحو نصف وزني ، ولـو رأيتـني الآن مـا عرفتني •• لقد تحدثت اليـك لاســــتشيرك ، فمـاذا افعل ؟أصبحت احس أنني اعيش مع رجل غريب • انه ليس الرجـل الذي أحببته قبل أن أحمل اسمه والذي ظللت احبه بعد أن حملت اسمه اربعة اعوام •• ليس هو ابدا

وفكرت قليلا ثم أجبتها :

لو انك قرأت القصيدة التي انتهيت من نظمها اليوم لسلمت معي بأن المـرأة التي تحب حبـا صحيحا من كل قلبها ، قادرة على أن تضحي أية تضحية في سبيل الرجل الذي تحب •

– وماعنوانها ؟

– « احملوني »

– الى أين ؟

– « الى ذراعي الرجـــل الذي أحب »

– ومن هي ؟

– امرأة احبت الى حد انها ضحت بمستقبلهـا وهجـرت وطنهـا

وداست كل أعتبــــار لكى تمكن الرجل الذى احبته من الوصـــول الى المجد الذى كان ينشده ٠٠

ـ ولكننى لا احبه الآن ٠٠

***

١٦ سبتمـــبر

لم استـــطع ان اتحـــــررمن تأثير الحـــديث التليفـــونى الذى دار بينى وبين الســـيدة المجهولة منـــذ ثلاثة أيام ٠ أن صوتهـــا المـــرتجف لايزال يلطم اذنى ويجعلنى أحس برغبة قوية فى أن اسجـــل ذلك الاثر فى قصيدة ٠٠ الزوجة العاشقة التى وهبت زوجهـــا كل عاطفتهـــا ، فجازاها على ذلك بالغدر والخديعة انذلك يصلح عنصرا غنيا لقصيدة حزينة موفقة

***

١٧ سبتمبر فجرا

أنتهيت الآن من كتابة قصيدة جديدة جعلت عنوانها « الحديقة الخجـــلى » سوف أرسلهـــا فى الصبـــاح الى مجـــــلة « الادب المصرى »

***

٢٤ سبتمبر

تحدثت الى الســـيدة المجهولة مرة أخرى ٠٠ لقد قرأت « الحديقة الخجلى » وفهمت أنها كانت وحى كل حـــرف من حروفهـــا ٠٠ لم اطلب اليها هذه المرة أن تصارحنى بشخصيتها ، ولكنها صارحتنى بها ٠٠

كانت « سامية » زوجة سعيد شـــاكر المهندس الشـــاب الذى اشترك فى انشاء بعض الابنيـــة الحديثة ، فى ضواحى القـــاهرة

والذى قدموه الى ذات يوم فى احدى الحفلات التى اقامها « نادى الضيافة » بشارع قصر النيل

وتذكرت أننى رأيت سامية من قبل بضع مرات .. مرة وهى تتناول العشاء مع زوجها فى مطعم بشارع الفى ، ومرة وهى تصحب احدى قريباتها الى احدى سيارات « الامنيبوس » فى ميدان الجيزة

وخيل الى بعد أن استعرضت حديثها الاول الذى أكدت لى فيه اننا سنتعارف ونتحاب .. خيل الى أنها ليست مخطئة خطئا كبيرا ، وانى فعلا أهتممت ، عندما وقع بصرى عليها للمرة الاولى ، بالتدقيق فى قسمات وجهها ، مازلت اذكر أن لونها أسمر ضارب الى الاصفرار ، عادية العينين ، الا أن فيهما معانى خفية عميقة تبدو فى نظراتهما الحادة . غنية بحيوية تدل عليها ضحكتها القصيرة المعبرة المعتزة ..

وختمت سامية حديثها بأن رجتنى أن أذهب الليلة الى دار سينما عينتها ، لكى نلتقى من بعيد ، ووصفت لى الثوب الذى سوف ترتديه

***

٢٤ سبتمبر

لقد ترددت كثيرا فى أن أذهب الليلة الى دار السينما التى رجتنى أن اذهب اليها ...

***

٢٤ سبتمبر بعد منتصف الليل

عدت منذ لحظة من السينما

كانت سامية تجلس فى المقصورة المواجهة للمقصورة

التى كنت فيها مع بعض اصدقائى فى ثوب أصفر ، وقد أشرق وجهها بأبتسامة نضرة

كانت القصة المعروضة لجارى كوبر وكان يمثل فيها دور مؤلف شاب أعتزل الحياة مع صديقته فى قريته

وطغى على شعور بالعطف على سامية والرثاء لها · وخيل الى اننى مكلف بأن أحاول اسعادها

وحملنى الخيال بعيدا عن « جارى كوبر » وقصته المعروضة ، وتخيلت نفسى الى جانبها هى ··· فى مكان ناء ·· منزل خشبى صغير على بعد بضعة أميال من الهرم ، منحرف عن طريق الاسكندرية الجديد · يحيط به بعض اشجار النخيل. ثلاث غرف واسعة أو أربع، ستائر من « الدانتل » لمنع ذرات الرمل من التسرب الى الغرف ، مصابيح من الغاز وشموع يدوية سهلة الحمل ··· أثاث حديث الطراز

واخذت أتخيل نفسى وقد انتهيت من عملى فى المساء ، ثم قفزت الى سيارتى وانطلقت عائدا بها الى ذلك المنزل الذى تشرق فيه ابتسامة سامية ··· لقد حددت فى خيالى اذ ذاك موقع المنزل على قمة تل من تلال الصحراء · استطيع أن المح سامية هناك فى ثوبها الابيض فأعدو بالسيارة حتى اقترب منها ، ثم اهبط لكى تضمنى بين ذراعيها

***

٢ اكتوبر

تكررت أحاديث سامية ··· وتوثقت صداقتنا الغريبة ··· الصداقة التى لا تعدو احاديث تفضى فيها الى بكل شىء ، واكاد أفضى لها أنا ايضا فيها بكل شىء

عجبا ! أن كل حديث من احاديثها يوحى الى بفكرة قصيدة

جديدة ‥ يخيل الى أننى عثرت على منجم وحى جديد

***

٥ اكتوبر

تحدثت الى سامية ، وطلبت أن اذهب لمقابلتها غدا صباحا عند باب حدائق الأورمان

اذن فالحلم الذى بدات خيوطه الاولى تتجمع ليلة شاهدنا معا تلك القصة السينمائية ، فى طريق التحقيق ‥ أنها بعيدة النظر ، صادقة الحس .. لقد أكدت لى فى اول حديث أننا سنتحاب

ولكن هل أحببتها حقا ؟ ‥‥ أننى سعيد

***

٦ اكتوبر

اعتذرت سامية عن موعد اليوم بكلمات قصيرة خافتة ، فهمت منها أن أشخاصا بجانبها ، واكدت لى انها ستتحدث الى غدا

***

٢٠ اكتوبر

كدت أنسى صوتها لأننى لم أسمعه منذ أربعة عشر يوما

***

٢ يناير

عدت عند الفجر من سهرة طويلة أحييتها مع بعض اصدقائى بمناسبة رأس السنة الجديدة ، ابتدأت فى القاهرة ، وانتقلت الى البيت الابيض المبنى فى منتصف الطريق الصحراوى بين القاهرة والاسكندرية • لست ادرى لم أعنى بأن اسجل هنا شيئا حدث عند عودتنا قبل الفجر ‥ فقد لمحت (خيمة) من وبر الجمال مقامة على الرمل بعيدا عن طريق السيارات وقد تصاعد من داخلها

دخان ، فالححت على اصدقائي رفقاء السهرة ان تقف ، وهبطت ثم سرت وقدماى تغوصان فى الرمل ، ولما وصلت الى باب (الخيمة) وجدت بدويا وزوجته يعدان الشاى فى اناء أسود ، فحييتهما ، ثم رجوتهما ان يعطيانى قدحا فرحبا بى ، حتى اذا انتهيت من تناوله أبيا اباء قويا أن يتقاضيا ثمنه

***

٤ أغسطس

كدت انكر نفسى عندما وقع بصرى الليلة على سامية وهى تذرع شاطىء « جليم » مع صديقة لها .. لقد نظرت اليها كأننى انظر الى « سحنة » تقادم العهد على معرفتى بها ، نظرة حاولت أن افتعل فيها شيئا من التأثر فلم أفلح

لقد تبلد احساسى نحوها ، واصبحت « واحدة » كغيرها ، عادية لا تكاد تقوى على ان توحى بأكثر من النظرة العابرة الموجزة

وارهقنى السير على الشاطىء فجلست الى احدى موائد المقهى ولم اشعر بعد قليل الا وهى تتبعنى وتختار المقعد الذى خلفى . . .

واغرانى الهواء الرطب الذى كان يهب على الشاطىء ، بأن استعرض ماضى القريب معها .

وانتهيت الى الاقتناع بما خطر لى ذات يوم وسجلته فى هذه (اليوميات) وهو الاقتناع بأنها واحدة من اولئك اللاتى يجدن الحديث بالتليفون ، ليتخلصن من سأم ساعة .. مسكينة لقد فقدت بتقليد الغير كل ما كان يميزها عن الغير

وحاولت مرة اخرى ان اتكلف اننى لم انسها ، ولكننى لم أفلح اصبحت ذكرى مطوية

ولما عدت الى المنزل القيت نظرة على بعض قصائدى التى

كانت هي وحيها .. « الحديقة الخجلى » و « نحو اللقـــاء » و « البيت النائى » . ثم ارسلت ضحكة مرحة عالية .

***

٥ أغسطس

رأيت سامية مرة اخرى اليوم صباحا على شاطىء سيدى بشر كغيرها دائمـا وسط رهط من الصديقات المصطافات .. واحدة بين آلاف النساء

انني احس ان من حق الناشرين الذين دفعوا ذلك الثمن المرتفع في قصائدى التي كانت هي وحيها ، ان يستردوا ذلك الثمن

كيف امكن ان تكون هـذه السيدة وحيا لذلك الشعر . . ان هذا الحشد الذى يمشى كالعقارب والثعـابين على رمل الشـاطىء يمزق اية فكرة شاعرة

هذا الشاطىء الصاخب الذى انتهزت سامية فرصـة الوجود فيه لكى تحـاول مرة اخرى ان تسـاير غيرها من المصـطافات فتعود لذلك اللهو .. وتوجـه النظر وترسـل الابتسـامة وتتابع الخطى الى مقهى او ..لقاء .. ان هذا الشاطىء ينزف دما .. ولقد يخيل الى ان الدم يجرى تحت رمله.. دم المساكين الذين يظنـون ان الحب تكفى فيه نظرة توجـه اثناء ذلك العرض العـارى على الشاطىء ، أو أثناء الحشد الثمل فى ملاهى الليل الصيفية .

وأخيرا دم النســاء اللاتى استطعن ذات يوم ان يوحين بفكرة رائعة لشاعر ، فلما وقع بصره عليهن مغمورات بين غيرهن على ذلك الشاطىء ، عجب كيف امكن ان يكن وحيـــه ، لانهن خطرن امامه على الشـــاطىء اشباحا بلا ارواح

***

١٠ اكتوبر

التقيت الليلة بالراقصة الفرنسية (لين) ، انها تعمل الآن فى ملهى بشارع عماد الدين، لقداقبلت على فرحة عندما رأتنى .

وتجاذبنا حديثا طويلا . فهمت منه انها قامت برحلة طويلة منذ التقينا فى العام الماضى .. تنقلت بين سوريا ولبنان والعراق وايران . . ثم عادت الى القاهرة .

وكانت تخفى فى صدرها شيئا ، لكنها لم تلبث أن أخرجته بعد ان تلفتت حولها وهى تقول :

ـ هذا عدد الشهر الماضى من مجلة «الفن العصرى» التى تصدر فى باريس .. انظر هاهى صورة فوتوغرافية لتمثال « ظل امرأة » لا يزال النقاد يتحدثون عنه الى الآن ، وهذا الناقد يتساءل عن الوحى الذى هيأ « لشوكى »العمل على ابراز هذه الفكرة .. لقد سألنى صحفى فرنسى فى بيروت عن حقيقة مايقال من اننى أنا التى اوحت بفكرة التمثال« لشوكى » فأنكرت برغم ان قسمات وجهى واضحة فى التمثال ، واختنق صوتها بالدموع ، فسألتها ، وأنا ادعو الخادم لاحضار كأس من « البيرنو » لها :

ـ لماذا ؟

ـ لان صدرى الذى يبدو فى هذه الصورة ناضجا شابا مغريا ، قد تهدل كما ترى من اثر هذه الحياة التى احياها ، وان مراقص بيروت لم تشأ ان تجدد عقدى ، وبعثت تستدعى راقصة اخرى اجمل منى .. وأنا لا اريد ان أذيع عن نفسى اننى صاحبة ذلك التمثال حتى لا اسىء الى سمعة« شوكى » . . ان الصحفيين الفرنسيين لا يرحمون . . سيفيضون سخرية ولذعا وتهكما اذا عرفوا أن صاحبة هذا الصدر الذى تراه قد اوحت للنحات النابغ بفكرته !

ولما رفعت كأس « البيرنو »الى فمها ، كانت قطرات الدموع

تتســـاقط فيها ، وبينما انا عائدالى منزلى كنت استعرض الفرق بين وفاء الراقصة ووفاء غيرها . . .

يخيل الى ان لكل امراة ظلا . . ظلا يحتمى بهالرجل الذى تهبه المرأة قلبها اينما كان . . لانني اتلظى تحت وهج شمس هـذا الصيف القائظ واحس ان هـذاالشعر الذى اوحت به سـامية الى ، يتلظى هو الآخر . . بل انه يكاد ينفجر جمرا محترقا يتطاير ويلهب أناملى التى كتبته . . .

مطابع دار أخبار اليوم